kitabweb-2013.forumaroc.net

وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الإسلامية

البينة

مجلة الرسالة الخالدة والثقافة المتحررة

السنة الاولى
العدد الاول

مايو 1962
ثمن العدد : درهم

البيّنة

مجلة الرسالة الخالدة والثقافة المتحرّرة

تتيمن البينة بأن تفتتح عهدها بصورة جلالة الملك المعظم الحسن الثاني شاكرة لجلالته عطفه ورعايته وتأييده راجية من الله ان يوفقه في رسالته السامية وفي عمله المتواصل لبناء المغرب المستقل في ظل الحرية والكرامة والتقدم .

رسالة جلالة الملك للبينة

الحمد لله وحده

تعرضت الأديان وسائر العقائد الروحية منذ القرن الماضي لرجات عنيفة من جراء انتشار المذاهب المادية والحملات التشكيكية التي شنها عليها الملحدون. ولم ينج الإسلام من هذه الحملات بالطبع، بل تعرض لها واستهدف زيادة على ذلك لسهام الطعن والنقد الموجهة إليه من بعض من بقيت في نفوسهم ترات وحزازات من أهل الملل الأخرى. مع أنه كان حريا بهم وطبيعيا أن يتضامنوا مع المسلمين في صد الغارات الإلحادية التي شنت على الأديان جميعا.

لهذا أصبح مما يشغل بال كل مؤمن التفكير في إيقاف تيار هذه الموجة الجامحة، وإعادة الإنسانية عن غيها إلى السبل القويمة، سبل الإيمان والحق والتسامح والإخاء.

ونحن المسلمين من أهل المغرب، نشعر بالخصوص بالواجب علينا في المساهمة بحظ في الدعوة إلى الإسلام ودفع كل الشبهات التي أثيرت حول مبادئه وغاياته ووسائله وآثاره. وإذا قلنا الإسلام فإنما نعني بذلك الدين الذي جاء مصدقا لما بين يديه من الرسالات السماوية التي سبقته، وحكما على لسان سيدنا محمد للدعوات التي بلغها من قبل موسى وعيسى وسائر الأنبياء والمرسلين وفي هذا الصدد بذل والدنا المرحوم أمير المؤمنين محمد الخامس كثيرا من الجهود المشكورة بمعاونة ثلة من علماء الشيوخ وثلة من مثقفي الشبان. كما أننا لم نلبث بعدما تربعنا على عرش المملكة حتى أنشأنا وزارة خاصة بالشؤون الإسلامية عهدنا إليها في جملة ما عهدنا بالدعوة إلى الدين، وكشف الحجب عن محاسن الإسلام ومبادئه السامية وغاياته النبيلة بطرق حديثة ملائمة لما جد من تطور في التفكير أداء للواجب الذي أناطه الله بنا بعدما طوقنا بإمارة المؤمنين.

لهذا نسر بظهور نشرية ونحن نرى وزارة دولتنا المكلفة بالشؤون الإسلامية تسير في الخطة التي رسمناها لها، وتقوم بنصيب في تعليماتنا في الدعوة إلى الحق المبين.

وإننا لنرحب بمجلة «البينة» التي عزمت اليوم على إصدارها راجين لها عمرا مديدا وتوفيقا كاملا في خدمة المثل الإسلامية العليا.

حرر بالقصر الملكي بفاس في 19 ذي القعدة عام 1381 الموافق 24 أبريل سنة 1962.

هذه البينة

من نحن ؟ واين نحن ؟ والى اين نسير ؟

هذه الاسئلة الثلاثة هي التى يجب ان توجه لكل انسان يريد ان يفكر ويخطط ثم يعمل . والجواب عنها هو الذى يكيف الفكر والتخطيط ويضع الانسان في الطريق الذى يختار .

حقيقة ان الانسان في اصله واحد ، وهو فى عواطفه وهواجسه وانفعالاته وتأثراته لا يختلف عن بعضه فى الجملة ، ولكن ذلك نفسه الذى يجعله يبحث عن ذاته وعن الزمان الذى يحياه والمكان الذى يتقلب فيه . ولذلك كانت معرفة الانسان نفسه الوسيلة الوحيدة لمعرفة الخالق والمخلوق.

ونحن العرب المسلمين مضى علينا زمن كنا فيه اعرف الناس بنفوسنا وبمكاننا وبالغاية التى نعمل لها فكنا بذلك ومن اجله هداة الخلق وبناة الامم ورافعي علم الحضارة وصلة الوصل بين الارض وبين السماء . ثم رددنا لاسفل سافلين فنسينا انفسنا وجهلنا مكاننا ومكانتنا ، واصبحنا نسير على غير هدى ونقتفي اثر الآخرين ولو كانوا اعداءنا والذين يبيتون لنا كل كيد وضلال .

وجاء الاستعمار فوجدنا فى ذهول عن الواقع وغفلة عن الواجب واشتغال بالسفاسف ، وكان أضعف ما هاجمنا به هو جيوش احتلاله وسيطرة رجاله . فقاومنا ذلك بقدر المستطاع وكان النصر له . لانه جاء بما لا قبل لنا به من عدة وعدد . ولكن القوة الكبرى التى كانت اشد علينا وطأة من كل قوة واخطر أثرا من كل سلاح ، هى معرفته باحوالنا وعمله

على اخراجنا عن كوننا الخاص ، وادماجنا في وجوده العام . لقد لوح لنا بالحرية عن طريق الايمان به وبنظمه وافكاره ، وخاطبنا بالمعسول من القول واحتكر وسائل الحياة فلم يسمح بالقليل منها الا لمن اتبعه . تكلم لغته ، وانتحل فكرته ، وآمن بانه رسول الحياة الجديدة والحضارة المثلى .

وعلى الرغم من كل ذلك فان اغلاطه الكثيرة وسوء تدبيره ، وما استقر في نفوسنا من وطنية طبيعية دفعنا الى مقاومته والاستماتة في سبيل الخروج من حكمه . فلما قاربنا مرحلة الانتصار ، غير اسلوبه ومد يد الاخوة المصطنعة والرابطة الانسانية العامة ، واعترف باستقلالنا ، وجلت جيوشه عن ارضنا ، وخلونا الى انفسنا بعد فاذا بنا نرث منه بقايا استعمار هي اخطر علينا وعلى مستقبلنا من الاستعمار نفسه .

لقد اصبحنا لا نعرف انفسنا ، ولا مكاننا ، ولا اين نسير .

اصبحنا نفكر بافكاره التي املاها علينا في المدرسة والمعهد والجامعة والسينما وكل مكان ، ونرغب في ان نصبح على صورته ولو غيرنا خلقتنا وشوهنا منظرنا .

لقد خرج المستعمر من بلادنا ، ولكنه ما يزال في قلوبنا ، إن نوعا من الحلول والاتحاد قد وقع بنا ، فاصبحنا نتنكر لوجودنا لنظهر وكاننا اولئك الذين استعبدونا بالامس .

وما اجدرنا ان نقف الآن لنتساءل من نحن ؟ ونفكر قبل ان نجيب ، والى اين نحن والى اين نسير ؟ ونفكر قبل ان نجيب .

لو فعلنا ذلك لعرفنا اننا نحن ، نحن العرب المسلمون المغاربة ، واذا كنا كذلك فيجب ان نشعر اننا غير الاروبيين وغير الامريكين وغير النصارى واليهود وكل طائفة لا تدين بالاسلام . واذا كنا كذلك فيجب ان نعرف ماضينا وعوامل تقدمنا وعوامل انحطاطنا . ولو فعلنا ذلك لعرفنا اننا نحن العرب المسلمين المغاربة، نعيش في هذا الوطن العملاق الذى يمتد من اقاصي افريقيا لاقاصي الصين ، والذى يشهد من تواريخ عالمنا ما لم تشهده بقعة اخرى . وهذا الوطن الكبير هو وسطنا الذى نشأنا فيه وتكيفنا جسمياوباطنيا بمكيفاته التي مهما غطت عليها صبغة المدرسة الاستعمارية فلابد ان تتكشف ولابد ان تاخذ طريقها للبروز .

ان مكاننا الذى نحن منه واليه ، يفرض علينا اتجاهات وروابط لا يمكن ان تمحوها افكار الشرق او الغرب ، ولا ان تفصم عراها روابط الفكر

المنتحل والاستغراب المصطنع . وهذا المكان واثره فينا ، والزمان الذى يصاحبنا فيه ويشهد بما فعل المستعمر معنا وما تقتضيه الثورة التحررية التى هى على موعد معه ومعنا ، هما اللذان يخطان طريقنا التى تؤدى بنا الى المصير الذى نريد . وما هو المصير الذى نريد ؟

انه طبعا الارتباط بالمكان والزمان وعوامل التسلسل التاريخى فيهما ، واذا كانت العوامل كثيرة لا محل للحديث عنها فى هذه المقدمة ، فان اعظم عامل فى حياة البشرية وبقاعها هو الانسان ، هو نحن ، بمشاعرنا وعواطفنا وافكارنا التى ليست الا انعكاسا لوجودنا يوم كنا قادة الفكر والحضارة. ويوم وقعنا فى الانحطاط ، واصبنا بنكبة الاستعمار. ونحن اولاء متى فكرنا تفكيرا شاملا لكل هذه الاثار ومؤثراتها ، نجد انفسنا ونجد الحقيقة معها، الحقيقة التى توذن أننا امة من دون الناس ، وان لنا حضارتنا وديننا ونظامنا وشرعتنا ومنهاجنا. ومتى وجدنا انفسنا فسنعرف كيف نتعايش مع كل الشعوب وكل الحضارات دون ان ننسى أننا مغاربة، اننا عرب ومسلمون ، وأننا مع ذلك وقبله ناس كالناس .

هذه الرسالة التى ترمى الى تعريفنا بانفسنا ، وبمركزنا فى الوجود وتذكيرنا بقوانا المادية والروحية ، وما نستطيع ان نقوم به من خير لانفسنا وللناس ، هى التى تتقدم اليوم وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الاسلامية لادائها وخدمتها ، حينما تؤسس مجلة (البينة) التى ستفتح اعمدتها للاساتذة وللمفكرين من رجال المغرب والمشرق ولاسيما من نخبة العرب الذين هم حراس الرسالة الخالدة وحواريوها .

ستكون (البينة) ملتقى اقلام المفكرين والكتاب الذين يتعمقون فى الدراسة ويتحررون من الجمود ومن التقليد ، اولئك الذين ينشدون الحقيقة التى ليست شرقية ولا غربية ، ولكنها انسانية وربانية، ينشدونها عن طريق معرفة انفسهم ووطنهم والمصير الذى يريدون .

ستشتمل البينة على صحف مطهرة من كل جدل عقيم ، وموضوع لا يمت لرسالتها بصلة . فقد اسست لتكون لسان الحق ومنبر الصدق واداة الاتصال بين الذين يعنيهم امر الاسلام وامر الفكر الاسلامى عن طريق البعث الاجتماعى والثقافة المتحررة .

وهكذا اراد جلالة الملك الحسن الثانى ان يفتح آفاق البحث والنظر لقادة الفكر واساتذة العصر . حتى تجد النخبة المغربية والعربية انتاجا متحررا

من كل نفوذ اجنبي ولكنه مستمد من روح العصر بقدر ما هو مستمد من التراث العظيم الذى نعتز به .

ونحن نرجو ان يمد ذوو النيات الحسنة من رجال المعرفة الينا يدهم ليساعدونا على ان نحافظ للبينة على مستواها الذى يشرف المغرب والفكر العربى على العموم ، ويحقق توجيهات جلالته التى لا ترغب فى غير الاصلاح واحلال العرب والمسلمين محلهم الذين هم به جديرون .

واننى اشكر الاساتذة العرب الذين هاجروا لمساعدتنا في معاهدنا العلمية على تفضلهم بالاسهام معنا فى تحرير هذه المجلة وخدمة اهدافها وننوه باصدقائنا المغاربة الذين لم يبخلوا علينا بتأييدهم ومعاونتهم ، ونرجو ان يجد الجميع ، في نجاح رسالتنا وبلوغ اهدافنا خير جزاء .

علال الفاسى

الطريقتان

يفرحني الالمعي الاديب
فصيح الكلام بديع البيان
معلم اخوانه علمه
وناشر اادابه في البلاد

بمنطقه المنتقى
وحكمته المرتضاة
يرغب في الارتقا
ويحدو بنا للحياة

بمنزله المزدهي بالكتب
يعلمنا طرق الافتنان

واصبعـه المزدهى بالقـلـم
يهيب بنـا لسبيـل الجهـاد

ويعجبـنـى اذا رآه
يسيـر بكـل انـاة
وقد سره وازدهـاه
تمتـعـه بالحصـاة

ويعجبنـى شعـره ان شـدا
ويملأنـى بالهوى والحنـان
بـروح رءوف وقلب عطـوف
يعلمنـا رأفـة بالعـبـاد

وأقـرب منه لجذب فـؤادى
نقى الضمير بسيط اللسان
اخوه الذى يغتـدى راكـعـا
الى الارض فى عزمة واعتداد

بئالته من حـديـد
وعزمتـه من حجـر
يخط لنا في الصعيد
سطور المنى والظفر

اذا مـا تجـلى بمحـراثـه
اعاد الى النفس كـل الامـان
يعـد الى النـاس اقواتهـا
ويدفع عنهم جميع العـوادى

له في مرور السحب
على الارض كل الرجاء
وكل اغاني الطـرب
له في ارتجاز الشتاء

ويعجبنـي وهـو مقتـنـع
ومفتخـر دون أي افتـتـان
بقلـب محب ، وروح طهـور
يعلمنـا ثقـة بالـبـلاد

علال الفاسي

مسالك الإسلام إلى القارّة الافريقيّة

للدكتور حسن ابراهيم حسن
مدير جامعة أسيوط سابقا
وأستاذ الحضارة الاسلامية بجامعة الربـاط

أخذت شعوب القارة الافريقية تفيق من سباتها وتعمل على نيل استقلالها الامر الذى عده السياسيون أعظم أحداث القرن العشرين ، بل لقد عده بعضهم اعظم احداثه على الاطلاق ، وذلك نتيجة حتمية للوعى القومي الذى انبعث بين شعوب آسيا وافريقية فيالشرق الاوسط فيالقرن التاسع عشر. وكان منآثر انبثاق هذا الوعي أن نال كثير من الدول الافريقية استقلالها ، وفى 19 مارس الماضي أبرم اتفاق وقف اطلاق النار بين الجزائر وفرنسا ، الامر الذى يعد بحق من أعظم احداث هذا العام . كما عملت الدول الافريقية على انشاء اتحاد افريقى يقوم على دعم العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية وغيرهـا وتاسيـس اتحاد يضم الشعوب الحرة فى هذه القارة .

مؤرخـو افريـقيـا

وقد تناول كثير من المؤرخين والكتاب تاريخ القارة الافريقية . نخص بالذكر منهم على سبيل المثال : عبد الرحمن السعدى التنبكتي فى كتابه تاريخ السودان ، وابا الحسن الجزنائـى فى كتابه زهرة الآس فى بناء مدينة فاس ، وابن ابى زرع فى كتابه الانيس المطرب فى اخبار ملوك

المغرب وتاريخ مدينة فاس ، وعرب فقيه فى كتابه فتوح الحبشة ، والشريف الادريسى فى كتابه نزهة المشتاق ، وابن بطوطة فى كتابه تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار المعروف برحلة ابن بطوطة ، وابن خلدون فى كتابه العبر وديوان المبتدأ والخبر ، وابن زيدان فى كتابه اتحاف اعلام الناس بجمال حاضرة مكناس ، وابن عذارى فى كتابه البيان المغرب فى اخبار المغرب وابا الحسن الوزان (ليو الافريقى) فى كتابه وصف افريقية (Description de l'Afrique) والقلقشندى فى كتابه صبح الاعشى فى صناعة الانشا ، وتقى الدين المقريزى فى كتابه المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار المعرف باسم الخطط ، ونعيم شقير، فى كتابه تاريخ الاسلام القديم والحديث .

ومن أهم المصادر الافرنجية جميعا كتاب الدعوة الى الاسلام ، تاليف سير توماس ارنولد (Sir Thomas Arnold) الذى تلمذت له بجامعة لندن . وقد ترجم الى كثير من اللغات الحية ، ووصفه الاستاذ رينولد نيكلسون (Reynold Nicholson) المعروف بقوله : انه يفوق حد الوصف من كل ناحية • وقد خصص سير طوماس ارنولد للقارة الافريقية بابين ممتعين : فتكلم فى الباب الرابع عن انتشار الاسلام بين مسيحيى افريقية ، ولاسيما مصر والمغرب والحبشة وبحث فى الباب الحادى عشر تحول البربر الى الاسلام ودخول هذا الدين الى المغرب ، وقيام الممالك الاسلامية فى القارة الافريقية ، كما تناول فى هذا الباب الكلام على الطرق الصوفية وانتشار الاسلام فى افريقية الغربية والشرقية .

وقد اهتم الاوربيون والامريكيون فى العصر الحديث ببحث القارة الافريقية من جميع نواحيها . نخص بالذكر من بين هذه البحوث كتاب « افريقية اليوم » (Africa To-Day) الذى قام على نشره جروف هينز (Grove Heinz) ويشتمل على ستة ابواب او مقالات دونها طائفة من الكتاب المحدثين • ومن المراجع الهامة كتاب الوحدة والتنوع فى الحضارة الاسلامية (Unity and Variety in Muslim Civilization) وقد نشره الاستاذ جرونيباوم (Grunebaum) وطبع بمطبعة جامعة شيكاغو • ويشتمل هذا الكتاب على مقالات تعالج الاسلام باعتباره دينا وحضارة ، وتبحث التراث الثقافى وحالة البلاد الاسلامية ، وعلاقة العرب بالحضارة الاسلامية . ويتضمن هذا الكتاب فصلين كتبا عن شمالى افريقية ، وعن افريقية الاستوائية ، وعن تاثير الشريعة الاسلامية ، وكيف تطبق فى افريقية ، كما تضمن فصلا آخر عن المؤثرات الاسلامية فى شرقى افريقية وغربيها .

وهناك كثير من المصادر التى كتبت عن اجزاء معينة من القارة الافريقية ، نخص بالذكر منها كتاب تاريخ نيجيريا (History of Nigeria) تاليف سير آلان بيرنز (Sir Alan Bunrs) الذى شغل منصب الحاكم العام لهذه البلاد سنين عديدة ، وكتاب الاسلام فى السودان (Islam in the Sudan) وكتاب الاسلام فى اثيوبيا (Islam in Ethiopia) تاليف سبنسر ترمنجهام (Spencer Trimingham) وكتاب المهدية (The Mahdiya) تاليف ثيوبولد (Theobald) وكتاب الاسلام والمسيحية فى الحبشة (Islam and Christianity in Abyssinia) تاليف سيدركويست (Cederquist)

ومن هذه المصادر الهامة كتاب وصف بلاد المغرب (Description du Maghreb) تاليف جوينبول ودى غويه (Juynboll et De Goeje) وكتاب البربر : دراسة عن فتح العرب لافريقية (Les Berbères, Etude sur la conquête de l'Afrique par les

Arabes) وكتاب الجمعيات الاسلامية والحركة المرابطية الدينية فى بلاد السنغال والنيجر
Les confréries musulmanes et le maraboutisme dans les pays du
Sénégal et le Niger) وكتاب الاسلام والمسيحية فى افريقية تاليف فورجيه (Forget)

ومن المصادر الهامة كتاب الحركات الاستقلالية فى المغرب العربى للاستاذ الرئيس علال الفاسى . وقد ترجم الى اللغة الانجليزية بعنوان :

The independence Movements in Arab North Africa

ومن هذه المصادر الحديثة كتابى : انتشار الاسلام والعروبة فيما يلى الصحراء الكبرى جنوبا وفى شرقى القارة الافريقية وغربيها ، ويتضمن المحاضرات التى القيتها على طلبة معهد الدراسات العربية العالية الملحق بجامعة الدول العربية . هذا بالاضافة الى المادة التاريخية المتواضعة التى تناولت بعض اطراف هذا الموضوع فى كتابى «تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى» باجزائه الثلاثة ، ولا سيما ما يتعلق منها ببلاد المغرب والنوبة والسودان .

وساحاول فى هذا المقال ان ابين فى شىء من الايجاز اهمية القارة الافريقية لنشر الاسلام والطرق التى سلكها هذا الدين الحنيف الى افريقية ، وارجو ان أتناول فى مقال آخر الكلام على اثر انتشار الاسلام عن طريق الفتح ، وعن طريق الفرق الصوفية ، ثم على ايدى الدعاة والعلماء والتجار والرحالة ، ثم على العنصرية ومبدا المساواة واثر ذلك فى نشر الاسلام بين سكان اواسط هذه القارة . كما ارجو ان اتكلم فى مقال آخر على الممالك الاسلامية التى قامت فى غربى واواسط وشرقى افريقية

افريقيا من أغـنى القـارات

ينتظم الاسلام أكثر من ثلث القـارة الافريقية الـتى تبلـغ مساحتـها II 262 000 من الاميال المربعة ، أى خمس مساحة الكرة الارضية ، ويبلغ عدد سكانها أكثر من مائتى مليون نسمة ، وهم يكونون 8٪ مـن سـكان الكـرة الارضية . وبين هؤلاء السكان خمسة ملايين من البيض

وموارد هذه القارة الاقتصادية بالغة الاهمية لتنوع هذه الموارد بتنوع البيئات واختلاف الموقع والمناخ. وهى تنتج نحو 98٪ من ماس العالم، 55٪ من ذهبه ، 22٪ من نحاسه ، كما تنتج نحو ثلثى محصول الكاكاو العـالمي ، وثلاثة اخماس انتاج زيت النخيل · هذا عدا معادنها الاخرى كالمنجنيز والكروم واليورانيوم ، بالاضافة الى امكانياتها العظيمة فى القـوى المائية . وبالقـارة الافريقية اكثر من ستين مليونا من المسلمين وفق الاحصائيات التى اوردها الاستاذ ماسينيو فى كتابه ألتقويم السنوى (I) .

(1) (Annuaire musulmane, pp. 228- 395)

وهذه القارة مورد اقتصادى عظيم فى المعادن والزراعة والمواد الخـــام ، وقد أدركت الدول الغربية هذه الحقائق ، فتسابقت الى استعمارها للانتفـــاع بثرواتها الطبيعية ، وأدركت الولايات المتحـدة الامريكيـة هـذه الحقائق فى السنين الاخيرة فاهتمت باقتصاديات افريقية اهتماما بالغا ، وعملـت عـلى الاحتفاظ بأسواقها ، وضاعفت رؤوس اموالها المستغلة فيها . أضف الى ذلك اهمية موقع هذه القارة الاستراتيجى، كما قرر ذلك الاميرال ريتشارد كونولى فى الفصل الذى عقده لبيان أهمية افريقية من الوجهة الاستراتيجية . فقـــد ذكر الاهمية الكبرى للاماكن الاتية (1) :

1 ـ طنجـــة .
2 ـ قاعدة مراكش الجوية وقاعدة الدار البيضاء البحرية .
3 ـ شمال غربى افريقية .
4 ـ ليبيـــا .
5 ـ ارتيريا ـ الحبشة ـ الصومال ـ موانى مصوع وجيبوتى ومقدشيو
6 ـ جزيرة مدغشقر وأهميتها فى حماية مسالك المحيط الهندى.
7 ـ رأس الرجاء الصالح ولاسيما قاعدة سيمونز تاون البحرية.
8 ـ قاعدة دكار التى تحرس طرق المواصلات فى غربى افريقية .

كيف انتشر الاسلام فى افريقيا

ويرجع انتشار الاسلام فى القارة الافريقية الى عاملين اساسيين :

الاول : طبيعة الشعوب التى قامت بنشر الاسلام ، وكانت فى الغالـب شعوبا بدوية رعوية أو شبه رعوية . ولم تكن لها خبرة بركوب البحـر أول الامر ، بل كانت تمتطى ظهور الابل والخيل ، ولا يستطيع أهلها التقدم الا فى السهول المكشوفـة .

الثانى : طبيعة الارض التى انتشر فيها الاسلام وتسربت اليها جمـوع البـدو . وكانت هذه البلاد الاسلامية تحيط بالصحراء الكبرى شمـالا فـى

(1) Richard Conolly, Africa To-Day, Africa's Strategic Significance, p. 55.

المنطقة الممتدة من حدود مصر الغربية حتي المحيط الاطلسى ، وجنوبا عبر وادى النيل حتى حدود النوبة . وفى النطاق الرعوى الذى يحيط بهذه الصحراء من الجنوب من مصب نهر السنغال حتى السودان .

على أن الاسلام لم يستطع أن يتخطى الحواجز الطبيعية الكبرى ، وهى شلالات النيل ، وهضبة الحبشة ، ومنطقة البحيرات الكبرى وما يكتنفها من أدغال وغابات .

الطرق التى سلكها الاسلام

ويلاحظ ان الاسلام قد نفذ الى غربى القارة الافريقية عن طريقين هما :

الاول : الطريق الساحلى عبر حوض السنغال ، وهو الطريق الذى سلكه المرابطون .

الثانى : طريق التجارة الذى يبدأ من مدن افريقية الشمالية متجها صوب الجنوب عبر واحات الصحراء الى المدن الكبرى فى السودان .

وأهم المراكز التجارية فى غربى افريقية بلاد غانة ، ومالى ، وجنى ، وتمبكتو (او تمبكت) ، وكانو . ومن اهم مراكز التجارة فى شمالى افريقية فى العصور الوسطى : القيروان ، وتونس وطرابلس .

وكانت هذه التجارة تسلك ثلاثة طرق رئيسية هى :

1 – الطريق من مراكش الى منحنى نهر النيجير والمناطق الواقعة جنوبا .

2 – الطريق من تونس الى المنطقة الواقعة بين نهر النيجير وبحيرة شاد .

3 – الطريق من طرابلس الى المنطقة المحيطة ببحيرة شاد كذلك .

وقد انتشر الاسلام فى ربوع القارة الافريقية فيما بعد ، فاخترق نطاق الغابات فى غربى هذه القارة ، وانتشر على طول الساحل الشرقى ، ودخل مع بعض المهاجرين الى الكونغو . ومن الشرق نفذ الى جنوبى السودان وهضبة البحيرات ، وقلب الهضبة الحبشية ، وتخطى الساحل الشرقى فى المناطق الداخلية الى كينيا وتنجانيقا . كما نفذ الى جنوبى افريقية مع المهاجرين من سكان شبه القارة الهندية ، وما زال ينتشر الى اليوم .

وهناك نهضة مباركة فى نشر الدين الحنيف انبثت بين مسلمى القــارة الافريقية فى جميع النواحى · فقد نفضوا عن انفسهم تراب الماضى وشاركوا فى الحركات التحررية ، وتسنموا أعلى المناصب ، وقاموا بدور ملحوظ فــى النشاط الاقتصادى والاجتماعى والثقافى . ولم ينسوا تقاليدهم الاسلامية ، وحرصوا عليها جد الحرص وتجاوبوا مع اخوانهم فى الدين فى كافة أرجــاء العالم الاسلامى . ولنأخذ فى الكلام عن تلك المسالــك الهامــة فــى شيء مــن التفصيل فنقول : ان الاسلام قد نفذ الى القــارة الافــريقية عن ثــلاثة طرق رئيسيــة هــى :

الطريق الاول : طريق بلاد اليمن وحضرموت والبحرين والاحساء الى الساحل الافريقى الشرقى ومصوع وبربرة ، حيث اخذت هجرات المسلميــن تتدفق على طول هذا الساحل الشرقى من خليج عدن حتى مدار الجدى عــلى حافة المنطقة التى كان جغرافيو العرب يطلقون عليها اسم بر الزنج . على أن أول هجرة للعرب ترجع الى زمن أبعد من هذا ، اذ يرجع بعض الباحثين أن استيطان العرب لافريقية الشرقية امــتد فى العصــور القديمــة حتى سوفالا جنوبى نهر زمبيزى . وقد بنى المسلمون مدينة مقدشيو على ساحل المحيط الهندى ببلاد الصومال . وذهب جماعة منهم الى زنزبار ، حيث نشروا الاسلام بين اهلها الذين يطلق عليهم اسم « السواحلية »، كما اسسوا مدينة كلوا ببلاد تنجانيقا الان ، وفى الساحل الشرقى مــن مدينة مدغشقر . بل لقــد نفذوا الى كينيا فاوغندة والى اقصى جنوبى القارة الافريقية، أى الى مستعمرة الرأس ، حيث نجد مسلمى هذه البلاد من سلالة أهل الملايو الذين جاء بهــم الهولنديون فى القرن السابع عشر أو الثامن عشر ، كما يذكر سير توماس أرنولــد(I) ·

ولم تكن جهود العرب مقصورة على الساحل الشرقى أول الامر ، بل لقد نفذوا الى داخل القارة الافريقية ، حيث شق الاسلام طريقه الى بلاد الحبشــة والصومال على أيدى الدعاة والتجار . كما نفذ الاسلام الى اوغنده فى القــرن التاسع عشر ، والى نياسالاند فى القرن العشرين .

والطريق الثانى الذى سلكه الاسلام الى القارة الافريقية هو طريــق النوبة ودنقلة ، وذلك بعد الفتح الاسلامى لمصر ، ولم تكن السودان بلاداً

I ـ ترجمة حسن ابراهيم حسن ص 294 ـ 288 .

مجهولة للعرب ، فقد كان نهر النيل الطريق التجارى لهم ، على الرغم من وقوف مملكة النوبة المسيحية حائلا دون هؤلاء الفاتحين والمهاجرين . ولم يكن كل العرب المهاجرين تجارا ، بل كان فيهم المتنقل سعيا وراء المراعى الخصبة والماء والكلأ ، فوجدوا فى فجاج السودان المترامية ما ينشدونه ، وتخلصوا من دفع الخراج ، كما وجدوا فى تجارة الرقيق والذهب والجواهر ضالتهم المنشودة وساعدهم على ذلك أن طبيعة السودان تشابه طبيعة بلادهم .

العرب ونشر الاسلام فى افريقيا

ولما ظهر الاسلام وامتدت فتوحه الى فارس والشام وفتح العرب مصر فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، انتشر الاسلام فى القارة الافريقية حتى بلغ مدينة اسوان جنوبا .

ويرجع النجاح السريع الذى احرزه غزاة المسلمين الى ما لاقوه من ترحيب المسيحيين وعلى الاخص من القبط ، وهم أهل مصر الاصليون الذين كرهوا الحكم البيزنطى بسبب فداحة الضرائب واستبداد الكنيسة البيزنطية بهم .

وفى عهد عمر بن الخطاب حاول العرب فتح بلاد النوبة ، فقد حاول عقبة ابن نافع فتحها على غير جدوى ، فهادن اهلها وعقد معهم صلحا أشبه بمعاهدة اقتصادية ، على أن تمدهم مصر بالحبوب والعدس ، وتمد النوبة مصر لقاء هذا بالرقيق لفلاحة الارض . ثم حاول المسلمون فتح بلاد السودان ونشر الاسلام فيه ، وان كان هذا قد كلفهم ثمنا غاليا ، ومع ذلك فقد عرف المسلمون أرض النوبة واختلفوا اليها لاغراض تجارية خالصة . كما عرفوا ارض البجة (أو البجاة) الذين كانوا يقيمون على مقربة من عيذاب على البحر وينتشرون بين النيل النوبى والبحر الاحمر فى الاراضى الممتدة بين أسوان ودنقلة تقريبا .

وقد اتصل العرب بالبجاة فى القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) بطريق البحر الاحمر وبطريق وادى النيل ، وخاصة من اقليم أسوان ، فرحلوا اليهم تجارا واجتازوا مصر الى بلادهم حاجين ، وهاجروا الى مفاوز الذهب والزمرد منقبين ومستخرجين . كما استقرت جماعة منهم هنالك ، وبنوا المساجد والدور . وكان ذلك من العوامل التى ساعدت على دخول هؤلاء البجاة فى الاسلام وتعريبهم . وفى اواخر القرن الثالث عشر الميلادى كان الاسلام

قد تسرب الى اهالى مدن النوبة السفلى · وكان لزواج العرب بالنوبيات أثـر كبير في اسلام النوبيين .

دور المغـرب فى نشر الاسلام بافريقيـا

والطريق الثالث الذى سلكه الاسلام الى القارة الافريقية هـو افريقيـة الشمالية والغربية · ذلك أن العرب بعد أن تم لهم فتح مصر ، مدوا فتوحهـم الى بلاد المغرب . وقد هيأ تأسيس مدينة القيروان فـى افريقية (وهى القطـر التونسى الان) على يد عقبة بن نافع سنة 50 هـ للعرب مركزا حصينا اتخـذوه قاعدة لنشر الاسلام فى شمالى القارة الافريقية وغربيها .

ومن أهم طبقات المجتمع الاسلامى فى شمالى افريقية شعوب البـربر ، وهم أهل البلاد الاصليون · وكان وقوع المغرب عـلى ساحـل البحر الابيـض المتوسط تجاه اوربا سببا فى تبادل سكانه حضارة الامم المجاورة الى جانب حضارتهم وتقاليدهم العريقة التى يرجع تاريخها الى ايام الفينيقييـن الذيـن عرفوا المغرب قبل ميلاد المسيح بنحو الف سنة .

وكان نجاح عقبة بن نافع فى نشر الاسلام بين البربر بطيئا ، لانشغاله بحرب الروم الذين انزل بهم الهزائم المتتالية . وكان ذلك سببا اصيلا فى ان دبروا له مكيدة مقتله في موقعة تهودا التى لعب فيها كسيلة دورا قيل بسبب استيائه لمعاملة عقبة بن نافع السيئة له ولصديقه ابن أبى المهاجر . وقيـل ـ وهو الارجح ـ ان الروم قد دفعوه الى الايقاع بالقائد العربى . ودليل ذلك أن تهودا كان بجانبها حصن رومى كبير·

ثم خلف عقبة زهير بن قيس البلوى الذى استطاع ان يقتص لمقتل سلفه فقتل كسيلة وحطم مقاومة الروم ، ولكن الروم دبروا له مكيدة شبيهة بتلك التى دبروها لعقبة حيث اشتبك مع الاسطول الرومى على ساحل طرابلـس . وكانت نهايته أن استشهد فى تلك المعركة · وكذلك لم يتمكن زهير بدوره من نشر الاسلام ، ثم خلف زهيرا حسان بن النعمان ، وكان حريصـا عـلى نشر الدين . فكسر شوكة الروم الذين قويت عزيمتهـم وانبعث فيهم الامـل فى استرداد بلاد المغرب من ايدى المسلمين ، فقاتلهم حسان قتالا مريرا وأنزل بهم الهزيمة ، ثم اتجه لمحاربة الكاهنة داهيا وقومها جراوة(1) . ولكـن الكاهنـة

---

(1) : السلاوى : الاستقصاء (الدار البيضاء 1954) ج ـ 1 ـ ص 92

هزمت حسانا الذى انهكت جنده الحروب مع الروم ، فانسحب الى طرابلس وظل بها خمس سنوات ، عاد بعدها الى المغرب وهزم الكاهنة ، وبدأت مواهبه تظهر فى نشر الاسلام وفي تدوين الدواوين باللغة العربية . وقد ساوى بين العرب والبربر ، وكادت تفتح على يده صفحة جديدة فى تاريخ المغرب الاسلامي · ولكن القدر عانده ، فخلع من منصبه وخلفه موسى بن نصير الذى أتم فتح الاندلس سنة 92 ه مساهما فى ذلك مع مولاه طارق بن زياد الذى كان ينوب عنه فيولاية المغرب الاقصى ، متخذا طنجة حاضرة لولايته .

وكان فتح بلاد الاندلس فتحا للاسلام فى المغرب والاندلس معا · ذلك أن معظم الجيش الذى فتح هذه البلاد كان من البربر بقيادة طارق بن زياد ، وقد شعر المغاربة لاول مرة بمساواتهم بالعرب ، وبدأت شخصية المغرب الاسلامية تدخل فى دورها الفعال ، اذ شعر البربر بعد فتحهم الاندلس ، أنهم أضحوا حماة الاسلام في هذه البلاد ، وأن عليهم مهمة نشر هذا الدين ومناهضة المسيحيين .

وقد حرص الخلفاء على اختيار طائفة من الفقهاء ليعلموا البربر فرائض الاسلام ويفسروا لهم آيات القرآن الكريم ، وأظهر بعض ولاة المسلمين ، ولاسيما الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز ، حماسة فى اعلاء شأن الاسلام . فقد أرسل مع واليه على شمالى افريقية عشرة من الفقهاء ليفقهوا مسلمى المغرب

على أن ثقة البربر بالدولة الاموية بالمشرق قد تزعزعت ، بسبب تسرب بعض فرق الخوارج ، كالاباضية والصفرية بينهم ، وقيامهم بنشر الدعاية ضد الحكم الاموى · وفى العصر العباسى الاول (132 ـ 232 ه) غدا شمالى افريقية مسرحا للفتن والقلاقل . ويعزى خروج البربر على ولاتهم من العرب الى بعد هذه البلاد وفرضهم ضرائب ظن البربر ان الدين لم ينص عليها. يضاف الى ذلك استفحال حركات الخوارج والشيعة ، حتى عمل بعض زعمائهم على الاستقلال عن الدولة العباسية ، وانضم بعض زعماء من العرب النازلين فى هذه البلاد الى البربر ، وخلعوا طاعة العباسيين ، وتأسست فى المغرب ولايات مغربية مستقلة ، منها ولاية تاهرت التى أسسها عبد الرحمن بن رستم من الخوارج الاباضية ، وولاية سجلماسة (تافيلالت الحالية) التى أسسها بنو مدرار بمساعدة الصفرية الزناتيين ، وولاية تلمسان التى أسسها بنوقرة الصنهاجيون ، ودولة برغواطة فى تامسنا (الشاوية الحالية) على ساحل المحيط الاطلسى .

ـعن ذلك نرى أن أهل الشمال الافريقي قد قاموا بدور ملحوظ في نشر الاسلام والثقافة الاسلامية .

وفي سنة 172 هـ قامت دولة الادارسة على يد المولى ادريس بن عبد الله العلوي الذي سار الى بلاد المغرب الاقصى مع مولاه راشد بعد ان بطش العباسيون بأهل البيت العلوي في موقعة فخ المشهورة سنة 169 هـ . وقد استقبلته قبيلة اوربة البرنسية ونشرت دعوته ، ولقي المولى ادريس من هذه القبيلة المغربية كل العون والتأييد في تأسيس دولة الادارسة التي كانت أول دولة مستقلة عملت جهدها على نشر الاسلام في ربوع هذه البلاد .

المرابطون ونشر الاسلام

ومما هو جدير بالملاحظة أن الدولة المرابطية تعتبر أول دولة وحدت المغرب الاقصى والاوسط وقامت بدور خطير في نشر الاسلام على الساحل الافريقي الغربي وبلاد السودان ، ويجمع المرابطون في المغرب بين الجهاد والثقافة الدينية معا، كما يتجلى ما فطروا عليه من نزعة دينية خالصة وحب للجهاد فيما ذكره عبد الواحد المراكشي(1) عن حضور المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية الى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين مستغيثا به في حربه مع الفونس السادس ملك قشتالة ، فأجاب ابن تاشفين المعتمد الى ما دعاه اليه قائلا : « أنا أول منتدب لنصرة هذا الدين ولا يتولى هذا الامر أحد الا أنا بنفسي » . وعبر ابن تاشفين البحر من سبتة في أسطول مغربي يتألف من مائة سفينة ميمما شطر الجزيرة الخضراء ، وأوقعت جيوش ابن تاشفين بجيوش الفونس في موقعة الزلاقة المشهورة ، التي تعد بحق من المواقع الحاسمة في التاريخ فقد طال حكم المسلمين للاندلس اربعة قرون أخرى بفضل انتصار يوسف ابن تاشفين في هذه الموقعة .

ويرجع انتشار الاسلام في الصحراء وفي حوض السنغال الى عبد الله ابن ياسين . فقد ذكر ابن أبي زرع (2)ان يحيى بن ابراهيم شيخ قبيلة جدالة احدى بطون صنهاجة استعان بعبد الله بن ياسين الذي عرف بالتقوى والتفقه في الدين (3). ولما مات يحيى بن ابراهيم، خلفه في زعامة صنهاجة يحيى بن

---

(1) المعجب في تلخيص اخبار المغرب ص 130 ـ 133 .
(2) الانيس المطرب (الرباط 1936) ج 2 ص 11 ـ 16
(3) راجع ابن خلدون (العبر ، طبعة بولاق 1284 هـ ج 6 ص 182) .

عمر اللمتوني . وقد ذكر ابن خلدون أن جدالة ولمتونة تنحدران من قبيلة صنهاجة الكبرى (1) .

وقد وجد عبد الله بن ياسين أن البربر فى ذلك الوقت كانوا يهملون شعائرهم الدينية ، فأخذ يحثهم على اصلاح سلوكهم ، وسار مع تلاميذه المخاصين الى جزيرة بنهر السنغال (2) بنو بها رباطا اتخذوه مركزا لعبادتهم، وأخذوا يعلمون الناس التفقه في دينهم والمحافظة على شعائرهم والاقلاع عن عاداتهم المخالفة للدين .

وسرعان ما تجمعت حول عبد الله بن ياسين طائفة من تلاميذه ، وخاصة من جدالة ومسوفة ولمتونة أخذت فى الزيادة حتى بلغت نحو الف شخص قاموا على نشر مبادى الاسلام . وقد ذكر ابن أبى زرع (3) أن عبد الله بن ياسين قال لتلاميذه :

« اخرجوا على بركة الله ، وانذروا قومكم ، وخوفوهم عقاب الله ، وابلغوهم حجته . فان تابوا ورجعوا الى الحق واقلعوا عما هم عليه ، فخلوا سبيلهم ، وان ابوا (من ؟) ذلك وتمادوا فى غيهم ولجوا فى طغيانهم ، استعنا بالله تعالى عليهم وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا » .

وأخيرا قاد عبد الله بن ياسين اتباعه وسماهم المرابطين .

وهذا الاسم ماخوذ من الرباط، اى الخلوة التى اتخذها عبد الله بن ياسين فى جزيرته بنهر السنغال . هذا ما ذكره صاحب القرطاس . اما ابن عذارى فانه يرى رأيا آخر فى هذه التسمية حيث يذكر أن تسمية المرابطين بهذا الاسم ترجع الى موقعة حربية استبسلت فيها قبيلة لمتونة الصنهاجية ، فأطلق عليهم عبد الله بن ياسين اسم المرابطين لصبرهم وحسن بلائهم ورباطة جأشهم (4) .

---

(1) قال ابن خلدون : (العبر ، ج 6 ص 152) ان بطون صنهاجة كثيرة : فمنهم بلكالة وانجفة ، وسرطة ، ولمتونة ، ومسوفة ، وجدالة ، ..) . وقال ابن خلدون (ج 6 ص 182) « كان هؤلاء الملثمون فى صحاريهم .. وكانوا على دين المجوسية الى ان ظهر فيهم الاسلام لعهد المائة الثالثة . وجاهدوا جيرانهم من السودان عليه (ى على الدين) فدانوا لهم واستوثق لهم (اى للملثمين) الملك ، ثم افترقوا ، وكانت رياسة كل بيت منهم فى بيت مخصوص »

(2) ويذكر ابن خلدون (العبر ج 6 ص 183) عند كلامه على هذه الجزيرة : « واخذه ابوبكر ، فنبذوا عن الناس في ربوة يحيط بحر النيل من جهاتها ضحضاحا فى المصيف وغمرا فى الشتاء » . ولعل ابن خلدون قد وقع فى هذا الخطا الذى وقع فيه الشريف الادريسى (كتاب المغرب وارض السودان ومصر والاندلس ص 8) اذ كان يطلق اسم النيل على نهر النيجر

(3) الانيس المطرب ص 14 ـ 16 .

(4) احمد مختار العبادى : مجلة تطوان ، العدد الخامس 1960 ص 146 ـ 147 .

ويرجع استعمال لفظ رباط الى زمن أبعد من هذا . ومعنى المرابطين : الاتقياء المجاهدون فى سبيل الله · وهذا اللفظ مأخوذ من الرباط ، وهو حراسة الحدود ، حيث كان يذهب المخلصون للدين لمساعدة حامياتها · وقد ورد لفظ رباط فى القرءان الكريم حين أذن الله سبحانه وتعالى المسلمين بالجهاد ، أى القتال فى سبيل الله ، وذلك لتأمين الدعوة الاسلامية والدفاع عنها ضد من يقف في سبيلها . فقال جل شانه فى سورة الانفال (22:39-40)

(وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم. وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف اليكم وأنتم لا تظلمون) .

وقد قام المرابطون بدور هام في نشر الاسلام في القارة الافريقية . ومن المعروف أن الامير ابا بكر بن عمر قلد ابن عمه يوسف بن تاشفين فى سنة 462 هـ حكم بلاد المغرب الاقصى شمالا ، فاستطاع يوسف بفضل مواهبه الفذة أن يؤسس فى سنة 466 هـ(1) الدولة المرابطية العظيمة التى خدمت الاسلام في الاندلس ولم تأل جهدا في نشره في كثير من ربوع القارة الافريقية

ثم جاء الموحدون فنشر الامام المهدى محمد بن عبد الله بن تومرت عقيدة التوحيد بين الناس بعد أن مهد لها طويلا بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر ابتداء من مكة المكرمة وهو عائد من الشرق وانتهاء ببلاد المغرب · وقد ألف لاتباعه كتبا فيعقيدته التوحيدية التى قام بشرحها بنفسه باللغة البربرية ·

وكما كان للمرابطين فضل عظيم فى نشر الدعوة الاسلامية فى اجزاء واسعة من القارة الافريقية والاندلس ، كذلك كان للموحدين اثر محمود فى الجهاد ضد الصليبيين بالاندلس. كما كان من مآثرهم نشر دعوتهم التي كانت تقوم على التوحيد . وقد ذكر صاحب الاستبصار أن دعوة التوحيد امتدت من طرابلس شرقا حتى غانة والى قلب القارة الافريقية . وكان للموحدين الفضل العظيم فى نشر الثقافة عامة والاسلامية منها خاصة ·

---

(1) المصدر نفسه ص 145 - 146

دور المغرب في الوحدة العربية والوحدة الإفريقية

بقلم : عبد الكريم غلاب

التيارات الحديثة التي تهب شرقا وغربا على المغرب ، وتتعاكس في سمائه ، ليست الا نبعا من قابليته لهذه التيارات . فما كان لتيارات أن تندفع او تتعاكس في بحر ميت لا حركة فيه ولا انفعال . وما كان لهذه التيارات ان تجلب غيثا او خيرا في محيط لا خير فيه ولا قابلية لخير . ولهذا نجد ان انفعال المغرب للتيارات الحديثة فيه من الذاتية الكثيرة بل هو تعبير صادق على قوة الانفعال العميقة التي تكمن في المغرب ، والتي كانت في الماضي مصدر زاده من الحضارة المتفاعلة ، ومصدر تقبله للهادف منها وتصديره ـ تصدير تفاعل ايضا ـ للفائض منها.

ومركز المغرب الجغرافي كان يمكن ان يساعد على اتجاهين متباعدين او هما على الاصح متناقضان . المركز الجغرافي كان يمكن ان يساعد على تقبل هذه التيارات في الحاضر كما تقبلها في الماضي ، وكان يمكن ان يساعد على صد هذه التيارات ، واقفال الباب في وجهها .

الوضع الجغرافي يساعد على التقاء التيارات

المغرب شبه جزيرة تحيط به الصحراء والبحار وهذا الوضع كان يمكن ان يعزل المغرب عزلا كاملا عن كل تيار خارجي ، وبالتالي يعزله عن تيارات تصدر منه الى آفاق اخرى . ولكن الامر كان على عكس ذلك ، فقد كانت

البحار والصحراء بمثابة اغراء لالتقاء التيارات وتماكسها وتبلورها وتصديرها كذلك . كان هذا في الماضي يوم كان الانتصار على الصحراء مرهونا بالجمل ، وركوب البحر مخاطرة سبيل النجاة منها شراع ، ورياح لا عاصفة فيها ولا ركود . وما يزال هذا الاغراء في الحاضر وقد تطورت اسباب الاتصال واندفعت الماخرات والطائرات تتخطى البحار والفضاء وتصل القارات في لمحات او لحظات . فما السر في تمرد المغرب على هذا الوضع الجغرافي وفي تقبله للتيارات الواردة وقابليته لتصدير ما يجب ان يصدر منها ؟

سؤال الجواب عليه قد لا يتفق مع اجوبة الجغرافيين ، وقد يتفق مع اجوبة الاجتماعيين . يقول الجغرافيون : ان البحر يعلم سكان الجزيرة وسيله التخلص من حصاره فيخترعون السفينة والشراع ، ويعطيهم زادهم فيصطادون وياكلون ، ويعلمهم وسيلة الدفاع عن انفسهم فيحمون حدودهم المائية بالمراكب والسفن ، ولكن الواقع ان سكان الجزيرة هم الذين يطوعون البحر فينتصرون على امواجه الصاخبة وعتوه الجبار . السر كامن في السكان لا في المسكن . كم من جزيرة ابتلعها البحر او قتلها لان اهلها كانوا يستحقون الابتلاع والقتل ، وكم من جزيرة عزلتها الامواج الصاخبة لان الامواج كانت ترعب نفوس اهلها فينكمشون على انفسهم وينتظرون الموت البطيء ، ومثل هؤلاء ليست لهم قابلية لتلقي تيارات ولا لابتداع حضارات لان قابليتهم للموت اقوى من قابليتهم للحياة .

السر في السكان

ولم يكن سكان المغرب لحسن الحظ من هؤلاء ، وانما كانوا من الذين يستطيعون ان ينتصروا على عوامل الهزيمة ، وان يتخطوا الصحراء الى اواسط افريقيا ، ويركبوا متن البحار الى قلب اوربا ، بل الى اقصى آسيا ، الى الهند والصين ، وليس ذلك الا فيض من هذا النبع الطافح بالنشاط وحب العمل ، الذي يغور في نفوس المغاربة فيغورها ، ويجعل قابليتها للهضم ، هضم الحضارات ، لا يفوقه الا قابليتها للابتداع . وذلك في رايي هو مصدر القوة التي يتسم بها المغرب ، ومصدر البقاء والتطور الذي يتسم به تاريخه .

واذا كان مركز المغرب الجغرافي لم يصد اهله عن تلقي التيارات وتفهمها وهضمها ، فانه الى جانب ذلك كان مغريا لهذه التيارات ان تندفع اليه من جيرانه والابعدين على السواء . وقوته وقابليته جعلتاه يقف من التيارات الواردة موقف المتفهم الحذر ، هو متفهم قابل مرحب بالصالح منها ، صلاح

حضارة او دين او علم ومعرفة، وهو حذر متنكر طارد للمسيء منها ، سوء استعمار او غزو او تخريب وتدمير . ومن ثم تجده يقف من الفاتحين ـ وما اكثرهم فى احقاب التاريخ ـ موقفين : ياخذ منهم الدين والعلم واللغة والحضارة ، وينبذ الاستعمار والغزو والاغتصاب . وهذا هو السر فى ان اى مستعمر لم يدم له وجود على ظهر الارض الطيبة ، ارض المغرب ، وان العرب انفسهم حينما قدموا لاول مرة كفاتحين صدهم المواطنون المغاربة على اعقابهم، ففشلت الحملات العربية الاولى ، فلما عادوا وهدفهم نشر الدين واللغة وتفقيه الناس استقبلهم المغرب بالبشرى وتقبل تيارات العقيدة واللغة والحضارة التى اتت فى اعقابهم. وقل مثل ذلك فى سائر التيارات التى هبت من الغرب المستعمر ، فكان المغرب ياكل الثمر ـ ان وجد فى هذه التيارات ثمرا ـ وينبذ النواة . وما قصتنا مع الاستعمار الفرنسى والاسبانى فيما انصرم من هذا القرن الا شاهد ، عشناه ، على ما نقول .

المغرب المصدر.. المستورد

هذا التفاعل فى التقاء التيارات العقيدية والحضارية فى المغرب كان كما قلنا تقبلا وتصديرا ، ومن ثم كانت رسالة المغرب رسالة مزدوجة . وذلك عنصر الحياة القوى فى هذه الرسالة . فما هو الاتجاه الذى اخذته رسالة المغرب وهي تبعث بتياراتها خارج الحدود التى نعرفها اليوم ؟

نحن لا نتحدث عن الجانب السياسى من هذه التيارات ، ولكننا نلمس الجانب الحضارى والثقافى ، وان كانا لم يفترقا فى عصر من العصور ـ وحتى فى عصرنا هذا عصر التخصص ـ عن الجانب السياسى .

انطلقت تيارات المغرب نحو افريقيا فى مقدمة ما انطلقت اليه فعمت الجزء الغربى من القارة السوداء ، وحملت هذه التيارات الحضارة والدين والتجارة ، وانطلقت الى الجنوب الغربى من اوربا فكونت فى شبه جزيرة ايبيريا ـ بتعاون كامل مع العرب الوافدين من الشرق ـ دولا وحضارة . وحملت معها الدين واللغة والنشاط العلمى والحضارى على العموم . وانطلقت هذه التيارات نحو الشرق من شمال القارة الافريقية فوصلت الى حدود مصر وحملت معها كذلك حضارة وعلما وثقافة وسياسة وتجارة .

وكانت هذه الانطلاقات نحو الجنوب والشرق والشمال يقابلها تقبل للتيارات الوافدة ، فاخذنا من حضارة الشرق العربى ودينه ولغته . واخذنا

من الاندلس الاروبية العربية حضارة وعلما وثقافة واسلوب حياة ، واخذنا من الجنوب الافريقي عادات وعقائد وموسيقى ، وتلك بعض مظاهر الحضارة.

واستمرت الاجيال تتعاقب وسط هذه التيارات المتفاعلة حتى الاحقاب المتاخرة من تاريخنا .

وكانت النهضة الاروبية والاستعمار الذى انبعث فى اعقابها يفتح آفاقا جديدة وتيارات عنيفة ، حضارية واقتصادية وعلمية يدعمها العلم والتقدم التقنى والفنى والقوة العسكرية والاساليب الحديثة فى الغزو المادى والفكرى . وكانت هذه التيارات منبعثة من ارادة السيطرة والتملك والانفراد ، ففى الوقت الذى تنبعث منطلقة فى البلاد التى تتوجه اليها ، تود ان تفصل هذه البلاد عن كل تيار آخر ، ولو كانت جذوره عميقة فى التاريخ ، فلا حضارة الا حضارة البلد الفاتح ، ولا نفوذ الا نفوذه ولا علم ولا لغة ولا سياسة ولا اقتصاد الا ما تشع انواره من البلد الفاتح .

وتلك هى المعركة التى خاضها المغرب منذ اواخر القرن الماضى حتى عهد الاستقلال .

الاستمرار الحضارى فى المغرب

فهل تراه استجاب لما تهدف اليه التيارات الحديثة الوافدة من الشاطىء الاخر للبحر المتوسط ؟

ليس من شك فى انه استجاب للكثير فغمرته التيارات الحديثة حتى كادت تقضى على كل صلة له بماضيه ، وعلى كل اتجاه غمر تاريخه . ولكن طبيعة المغرب والمواطنين المغاربة ، التى الحنا اليها فيما سبق ، تمردت على هذا الغزو الموجه لتثبت قوة الاستمرار الحضارى والثقافى ، ولتقضى على ارادة العزلة التى حاولت التيارات الاستعمارية ان تفرضها على المغرب والمواطنين المغاربة .

وهنا ظهرت معجزة المواطنين مرة اخرى فى الانتصار على عوامل الهزيمة . انتصروا اولا على المركز الجغرافى ، وانتصروا ثانيا على المركز الذى وضعهم فيه الاستعمار ، فانطلقت ارادتهم تحطم العزلة لتثبت قوة الاستمرار الحضارى والثقافى ولتجعل حياتها ومستقبلها فى صراع التيارات لا فى التيار الواحد المفروض .

المغرب وسط التيارات الحديثة

نحن اذن امام ثلاث اتجاهات كل منها له جذور فى تاريخنا الحافل : الاتجاه الاروبى الوارد ، والاتجاه العربى والاتجاه الافريقى . ولكن الاتجاه الاول اصبح تيارا من جانب واحد ، وليس من موضوعنا ان نتحدث عنه ، اما الاتجاهات الاخران فهما محط تيارات متبادلة . يؤثر المغرب فيهما بمقدار ما يتاثر بهما ، وهما التيار الافريقى والتيار العربى .

فما هى طبيعة هذه التيارات المتبادلة ؟ وما موقف المغرب منها ؟

يجب ان نوضح اولا ان طبيعة التيارات المتصارعة فى التاريخ ليست هى بالحرف طبيعة التيارات الحالية . فاصول الحضارات ولو انها واحدة الا انها تختلف كما وكيفا فى الحاضر عنها فى الماضى نتيجة تطور الفكر وتطور الحياة العقلية والمادية وتطور الاساليب التقنية والفنية ، ونتيجة لخضوع هذا العالم المتأثر — ان صح هذا التعبير — لتاثرات اخرى وانفعالات جديدة واردة من اروبا وامريكا وآسيا .

نحن الان فى عالم تقاربت اجزاؤه ، وتطور فيه التفكير السياسى والاجتماعى وظهرت فيه مذاهب سياسية واقتصادية واجتماعية تتارجح بين الفوضى المطلقة ، وسيطرة الدولة ، او سيطرة الفرد وتتارجح بين الحكم للحكم ، والحكم للمجتمع ، وتتارجح بين الايمان بالله والالحاد المطلق ، وتتارجح بين القومية الضيقة المحدودة الافق ، والوحدة الاقليمية او الجنسية والوحدة القارية

والعالم الذى وضعنا فيه العالم العربى والافريقى ، فيه ملكيات وجمهوريات ، وفيه نظم اشتراكية وديمقراطية واقطاعية ، فيه تحرر سياسى واقتصادى ، وفيه استعباد سياسى واقتصادى ، فيه تحرر فكرى من سيطرة الغرب والشرق وفيه التعبد او التدين للغرب او الشرق .

هو عالم يعيش فترة المخاض ستتكشف عن وليد لاندرى ما هو وكيف سيكون شكله .

ولكن هذا العالم — الذى نحن فيه — يتجه باتجاهين : اتجاه الوحدة العربية ، على اختلاف فى مفاهيم الوحدة العربية واتجاه الوحدة الافريقية على اختلاف أيضا فى مفهوم الوحدة الافريقية ؟

فما موقفنا من هذين الاتجاهين ؟

قبل ان نجيب ، ينبغي ان نحدد مفهوم الوحدة العربية ، ومفهوم الوحدة الافريقية .

الوحدة العربية

الوحدة العربية ما تزال معني غامض المفهوم عند الكثير من البلاد العربية ومن الساسة العرب ، ورغم انها دعوة جنسية فان مفهومها السياسي طغى فى أذهان الداعين اليها على مفهومها العنصرى . وقد كانت هذه الدعوة رد فعل للوحدة الاسلامية كما كان يصورها الاتراك او على الاصح هي رد فعل للاستعمار التركي الذى كان يجعل من اسم الوحدة وسيلة لاستعمار الشعوب العربية واستغلالها والضغط عليها واحتقارها . وكانت مقاومة هذا الاستعمار تصطدم باسم الخلافة والمشاعر الدينية ، وكان لابد للذين وقعوا تحت نير هذا الاستعمار من مثل يتعلقون به حتى لايتهموا بالتمرد على الوحدة الاسلامية .

وكانت الدعوة الى القوميات والعنصريات فى أوجها فاتجهوا الى الدعوة العربية يستعيضون بها عن الوحدة الاسلامية الممثلة فى الخلافة العثمانية .

ومن يومئذ والافكار حول هذه الوحدة العربية تتأرجح بين التضامن والتعاون والاتحاد والجامعة والقومية والوحدة والاندماج .

ويجب ان نقر بأن الفكرة القومية عند العرب افادت البلاد العربية فائدة جلى ، فقد دفعت بهم الى الكفاح ضد الاستعمار التركى ثم جندتهم للكفاح ضد الاستعمار الغربي ، وأحاطت كفاحهم بنوع من التضامن والتعاون العاطفى فى كثير من الاحيان والعملى فى بعض الاحيان . فكانت البلاد العربية — لاختلاف المستعمر فيها ولتنوع سياسته وتأرجحها بين الشدة والعنف — مجالا للمكافحين فى هذا القطر او ذاك ، ومتنفسا للمكافحين من الخارج تتيح لهم حرية العمل والتنقل ، ثم اصبحت تتيح لهم حرية التجند والتسلح . وكان باب الفكرة العربية أو الوحدة او القومية هو الذى يدخلون منه لايجاد هذا المتنفس ، وكان هو المبرر الاكبر للمسؤولين فى هذا القطر أو ذاك لبذل المعونة والمساعدة والنجدة فى بعض الاحيان .

غير اننا يجب ان نعترف كذلك ان الفكرة العربية لم تتضح ايديولوجيا

وعمليا في اذهان القادة والمسؤولين ، بله الشعوب في جميع البلاد العربية وسر ذلك :

اولا : الوحدة العربية ما تزال تختلط بالقومية الاقليمية الوطنية ، فالمصري او السوري او العراقي او المغربي ما يزال الوطن الضيق عنده فوق الجميع ، وما يزال ينظر الى الاوطان الاخرى على انها اوطان اجنبية عنه ، وما يزال ينظر الى المواطنين الاخرين على انهم أبناء عمومة - على أحسن تقدير - ولم ينظر اليهم قط على انهم اخوة أو اشقاء ، والاجيال التى انصرمت - منذ بدأت الفكرة العربية تطل برأسها فى اوائل هذا القرن وعلى الاخص بعد الحرب العالمية الاولى - كانت تعيش فى جو وطنى ضيق ، وكانت الوطنية تطغى عندها على القومية ، بل ان كثيرا من هذه البلاد تنكرت للعرب والعروبة والقومية العربية فى كثير من فترات هذه الحقبة . ولهذا يمكن أن نقول ان الوحدة العربية ما تزال عاطفة بدائية عند كثير من الشعوب والمسؤولين فى الوطن العربى .

ثانيا : الوحدة العربية لا تستند الى اديولوجية صحيحة مدروسة عمليا وواقعيا ، مفهومها غامض ، وما يراد منها غامض ومسقبلها بين القوميات والتيارات القومية العالمية غامض . ولم تجد حتى الآن المفكرين الذين يضعون لها الاديولوجية الصحيحة . وباستثناء الكاتب المفكر ساطع الحصرى لانكاد نجد تفكيرا علميا مدروسا مكتوبا عند المفكرين العرب

وانتم تعرفون ان الاتجاهات السياسية الكبرى لا تنبعث ولا تنجح اذا لم يسبقها تيار فكرى يجعل منها مذهبا وعقيدة وبرنامجا . والوحدة - اية وحدة - على الاخص لا تقوم على أساس من المنطق اذا لم يدعمها تيار فكرى فلسفى . وذلك ما تفتقده الوحدة العربية حتى الآن

تجربة الجامعة

ثالثا : قامت تجربة عملية - بعد التجارب العاطفية او التى قام بها غير المسؤولين - وهى الجامعة العربية . واذا كانت هذه الجامعة قامت بمجهود مشكور فى خلق مجالات التقارب والتعاون والاتحاد فى السياسة الخارجية او فى الاقتصاد والثقافة ، فانها اصطدمت منذ نشأتها الاولى بعدة عراقيل نجملها فيما يلى :

1 - اصطدمت بعقلية الحكام الذين تعاقبوا على الحكم فى مختلف البلاد التى اسستها أو انضمت اليها ، وكانت - وما تزال عقلية وطنية

ضيقة على احسن تقدير ـ ، وعقلية رجعية متخلفة في كثيـر من الاحيـان وعقلية انانية في احيان أخرى . فكانت بذلك حظـوظ الخلاف فـي حظيرة الجامعة أقوى من حظوظ الاتفاق . وتضاءلت سلطة الجامعة ، فلم تستطـع ان تنفذ حتى قراراتها على قلة ما يتخذ فيها من قرارات ايجابية ؟

2 ـ اصطدمت بدسائس الاستعمار الذى حاول من جهـة ان يربـط بعض البلاد العربية بأحلاف أجنبية ضـد التسرب الشيـوعى ولتطـويـق العالم العربى كذلك كحلف بغداد . وحاول من جهة أخرى ان يفسد كـل عمل ايجابى تقوم به الجامعة ، وأغلب هذه الاعمال يتسم بطابع التحرر من الاستعمار فالصراع بين الجامعة ودول الاستعمار صراع مكشوف ، ولـو انه لم يتخذ طابع الصراحـة والعنف .

3 ـ اصطدمت بقضية فلسطين ، وفشل العرب فى قضية فلسطيـن تحملته الجامعة باعتبارها كانت الاداة الجماعية التى تدخلت الدول العربية فى حرب فلسطين عن طريقها . واذا كانت الدول العربية اصيبت بصدمات قوية من جراء النكبة ، فان المنظمة العربية أصيبت بصدمـة مضروبة فـي سبع صدمات هي التى أصيبت بها البلاد التي ساهمت في حرب فلسطين .

كل ذلك اثر فى الجامعة العربية ، وجعل منها اداة شلاء استحال عليها ان تنهض بعبء القومية العربية او الوحدة العربية ، أو حتى الجامعة العربية. وما لم تنتف هذه الاسباب فان الجامعة ستظل معروقة الجسم واهنة القوى ولو عدل ميثاقها وتغيرت معالم ادارتها .

ويمكن ان نقول ان هذه المضاعفات افقـدت الثقـة فيها حتـى بيـن القائمين عليها من أعضائها ، وأخذت كل الجهود التى تبذلها من حين لآخر بعض البلاد العربية لتدعيم التضامن بينها تتم فى غيبة او غفلة عن الجامعة . تمت وحدة مصر وسوريا ومصر واليمن ، وتم الانفصال ايضا في غيبة عن الجامعة ، وتم الاتحاد الهاشمى بين الاردن والعراق ثم انفصام هذا الاتحاد فى غيبة عن الجامعة ، وتمت مطالبة العراق بضم الكـويت فى غـيبة عـن الجامعة ، وتمت الاتفاقات الاخيـرة بيـن سوريا والعـراق قـبل الانقلاب الاخير فى غيبة عن الجامعة ، وتتم الآن الخطوات لبناء وحدة المغرب العربى فى غفلة عن الجامعة ، ويدعو الملك حسين لمؤتمر اسلامي قد يراد منه بعث فكرة جامعة اسلامية فى غيبة كذلك عن الجامعة العربية ، وتمت خصومات وقطع علاقات أو توقيفها بين مختلف بـلاد الجامعة فى غيبة عنها ؛ وهكذا يمكن أن نقول ان اعضاءها يعملون ضدها اكثر مما يعملون معها .

تجربـة مصـر ـ سوريا

رابعـا : قامت تجربة عملية جدية أخرى فـى سبيل تدعيم الوحدة العربية ، وهى الوحدة بين مصر وسوريا . ومرت هذه الوحدة بكثير من الصعاب انتهت بها اخيرا الى الفشل . وقد تكون البلاد العربية التى صفقت طويلا للوحدة قد صفقت طويلا للانفصام .

لماذا فشلت بعد أن كان يرجى ان ينضم اليها اعضاء أخر .

الاسباب كثيرة حللها المسؤولون فى مصر وسوريا ، وما يعنينا منها الا الخلاصة ، وهى ان الوحدة العربية لم تنضج ايديولوجيا ، ولم يتحدد مفهومها فكريا وعمليا . والعاطفة التى تنفعل فتصفق للعمـل قـد تصفـق لضده . والاحداث الكبرى تنهار اذا ما قامت على عاطفة مجردة . وكل الاسباب الـتى ذكرناها لضعف الوحدة العربية ينطبق مجموعها على فشل التجربة السورية المصريـة ؟

ويمكن أن يقال مثل ذلك أو اكثر منه فى اتحاد مصر واليمن او فى اى اتحاد آخر من هذا النوع .

خامسا : قام وسط العالم العربى السرطان الصهيونى ، وبقطع النظر عن كونه اغتصب قطعة عزيزة من قلب العالم العربى فهو يعمل لاضعاف هذا العالم ولتهديده في أرضه وفى قيمه ، بل انه ليستعـد لامتصـاص شريـانه الحيوى . ونحن على علم بالمؤامرات التى يديرها مع الاستعمار وبالتهديد الذى يجعله مستمرا قائما على حدود البلاد العربية ، وباشغال هذه البلاد بالحرب عن البناء والتشييد ، ويبذر بذور الشقاق بينهـا ، وبتطويقها من الجنوب والشرق والشمال باقامة احلاف واتفاقات مع بعض دول افريقيا وآسيا وأوربا .

وهذا السرطان لا يمكن أن يقضى عليه باتجاه نحو وحدة لا مدلول لهـا فكريـا وعمليـا ؟

نستخلص من كل هذه الاسباب أن الوحدة العربية ما تزال بعيدة عن أن تفرض وجودها ، وما تزال أفكارا غامضة لم تتحدد مدلولاتها رغم أكثر مـن نصف قرن من المخاض .

الوحـدة الافـريقيـة

ونعود الى فكرة الوحدة الافريقية التى نبتت حديثا والتى تقوى جانبهـا بالجهود التى تبذلها شعوب القارة السوداء للتخلص من نير الاستعمار ، وزادت

قوة بفضل تطور العملية الاستقلالية حتى أصبح الاستعمار كأوراق الخريف تتداعى للسقوط لمجرد لمسة أو هبة ريح .

ويجب أن نكون صرحاء أيضا في تحليلنا للوحدة الافريقية كما كنا صرحاء ـ فيما اعتقد ـ عند تحليل الوحدة العربية .

الوحدة الافريقية لم تولد بعد في صورة جماعية ، ولا في صورة منظمة، وقد وجدت اتحادات ومواثيق هنا وهناك ، ولكنها لم تتبلور بعد ولم تتخذ شكلا افريقيا عاما

يوجد ميثاق الدار البيضاء بين الدول الافريقية غير المنحازة وتوجد مجموعة برازافيل أو الدول الناطقة بالفرنسية .

وتوجد المجموعة التي اجتمعت في مؤتمر لاغوس .

ويوجد الاتحاد الثلاثي بين غينيا وغانا ومالي .

وكل هذه المنظمات أو التي تسير في طريق تكوين منظمة تهدف الى شيء واحد هو خلق تضامن أو اتحاد بين الدول الافريقية .

هذه الاتحادات ارهاص بأن افريقيا مقبلة على نوع من التكتل يساعد على بناء كيانها وتخلصها من عهد التخلف فما هي حظوظ النجاح وما هي حظوظ الفشل ؟

حظوظ النجاح

أما حظوظ النجاح فتتمثل في شعور الانسان الافريقي بذاتيته وأهمية بلاده ، وأحقيتها للاستقلال والنهوض والتطور والخروج من حياة التخلف ومن الاستغلال والاستعمار والعنصرية هذا شعور جارف امتد الى كل آفاق افريقيا . وقوة هذا الشعور تبشر بأن فكرة التضامن او الوحدة تأخذ طريقها وبالاضافة الى ذلك فهناك شعور بضرورة الدفاع عن الكيان وأهميته؟ فمعظم شعوب افريقيا تشعر بأن الاستعمار انحسر عن القارة او اخذ ينحسر عنها لان الاستعمار في شكله التقليدي قد انتهى ، ومن اجل ذلك فهو يبحث عن اسلوب آخر لينبعث من جديد في شكل جديد . ولهذا فشعوب القارة الواعية تبحث عن وسائل صد هذا التيار ، وما ترى هذه الوسائل الا في الوحدة .

ثم ان شعورا عارما آخر يدب في القارة بين الطبقة الواعية المتفهمة ، وقوامه ان القارة كانت ـ وما تزال ـ مصدر المواد الاولية للاقتصاد الاوربي الغازي ، ومجال استهلاك للصناعة الاوربية الغازية . وهذا التخلف الاقتصادي سيجعل سيف الاستعمار دائما مصلتا على رقاب الافريقيين . ولهذا بدأ التفكير في لم شتات القارة لاحداث تكامل في الاقتصاد الافريقي ، ومحاولة الخروج من السيطرة الاقتصادية الاوربية .

حظوظ الفشل

ونعود الى الحظوظ المعاكسة لنلخصها فيما يلي :

اولا : القارة الافريقية متشعبة الاطراف واسعة الافاق تغمرها الغابات الكثيفة ويسودها جو قاس ، وليس بها تجهيز كاف بالطرق والمواصلات الحديدية او الجوية والهاتفية وفي ذلك ما يعرقل الاتصال والارتباط بين شعوب القارة والمسؤولين فيها وما يجعل من الصعب نقل المواد والتكامل الاقتصادي على العموم .

ثانيا : تسود القارة قوميات مختلفة وقبائل كثيرة متحكمة ولغات او لهجات تعدبالآلاف ، واديان وعادات متباعدة ،وحالة من التخلف الاجتماعي والاقتصادي جد خطيرة . وهذا مما يعوق نضج الافكار والمذاهب والايديولوجيات . وقد سبق ان اشرت الى ان وحدة ما، مهما تكن درجتها، لا تنجح اذا لم تقم على ايديولوجية سليمة مقنعة .ولكن اذا وجدت في بلد من بلاد افريقيا طبقة واعية من المثقفين الذين يستطيعون ان يخدموا الفكرة الافريقية وفق مذهب هادف محدد المعالم ، فقد يكون من الممكن تخطى هذا العائق مع انه فيما نعتقد عائق خطير بالنسبة للوحدة الافريقية .

ثالثا : مخلفات الاستعمار في القارة مخلفات جد خطيرة ليست مخلفات مادية اقتصادية فحسب ، ولكنها مخلفات مذهبية وتجر الى تركيز التبعية السياسية واللغوية والاقتصادية . وعلى اساس هذه التبعية تنقسم القارة الى كتل ناطقة بالفرنسية وكتل ناطقة بالانجليزية ، وقد تخلق كتل تشارك في تكوين شعبها ونظام الحكم فيها اقلية اوربية تعد نفسها من الافارقة البيض . ومن كلمة «البيض» نشتم رائحة العنصرية الاوربية التي لاتضاعف من تقسيم القطر الواحد فحسب ، ولكنها بالاضافة الى ذلك تضاعف من التبعية في الحكم والاقتصاد والاتجاه لاوربا .

هذا التقسيم الى كتل تابعة سيجعل من هذه الكتل امتدادا لفرنسا او انجلترا او غيرهما فى قلب القارة الافريقية ، امتدادا كاملا فى الاقتصاد والتوجيه السياسى والتكوين الثقافى . وذلك شيء يعوق الوحدة الافريقية المنشودة .

يضاف الى ذلك الربط المحكم الذى تربط به الدول الاستعمارية اقتصاد القارة بالاقتصاد الاوربى على اساس ان يبقى اقتصادا مكملا ينتج المواد الاولية ويستهلكها مصنوعة فى اوربا وتلك اعلى درجات الاستعمار الحديث . بل والقديم . ومن سوء الحظ ان المسؤولين فى كثير من دول القارة ، حديثة العهد بالاستقلال ، لايشعرون بوجود بلادهم الا ضمن هذه الدائرة التى يخطها الاستعمار ويرسم خططها .

رابعا : هناك رد فعل خطير ظهر فى القارة السوداء هو امتداد للعنصرية العكسية ، وهو تخوف السود من البيض الافريقيين ، او انكماش الجزء الاسود من القارة عن الجزء الابيض فى الشمال . اننا نلاحظ عند بعض المسؤولين فى الدول السوداء تخوفا من الدول البيضاء ، وقد يتطور ـ او هو تطور بالفعل ـ هذا التخوف الى عنصرية مقيتة تفرق بين البيض والسود . وتصور البيض او افريقيا العربية فى صورة مستعمرين يجب الحذر منهم .

وليس من شك فى ان ذلك من بقايا الاستعمار وهو نتيجة للتكوين الاستعمار الذى يهدف الى ابقاء السيطرة على المستعمرات القديمة .

وخطر هذا الاتجاه على الوحدة الافريقية بين ، بل ان خطره على تقدم القارة فكريا واضح بين كذلك .

هذه ظروف معاكسة ، او هى حظوظ الفشل للوحدة الافريقية المامولة . وهى تساعد على احداث تكتلات او وحدات اقليمية قد تخدم الفكرة الاستعمارية أكثر مما تخدم الفكرة التحررية ، وقد تربط هذه الكتلة او تلك بعجلة هذه الدولة او تلك اكثر مما تساعد على تحرر القارة .

ولكنا مع ذلك نعتبرها ظروفا عارضة ستقضى عليها الاجيال الصاعدة فى هذه الدول نفسها ، فما من شك فى انها ستكون متحررة اكثر من الجيل الذى اعدته الدول الاستعمارية للحكم بعقلية خاصة وتفكير خاص ، ومع ذلك يجب ان تساهم الدول المتحررة وعلى رأسها دول ميثاق الدار البيضاء لتزيح العراقيل التى يصطنعها الاستعمار والتخلف عن طريق الوحدة الافريقية .

اى طـريق نسلـك ؟

نحن الآن أمام عالمين لكل منهما أثر فى تاريخنا ، وكل منهما يسعى للوحدة والتخلص من الاستعمار والتخلف ، وكل منهما عالم لا يقوم بغير الوحدة ، ولايقوم بغير البناء الاقتصادي والاجتماعي المشترك . ونحن في المغرب نكون أحد الشعوب الكبيرة الغنية وسط المجموعة العربية ، ونكون احد الشعوب الكبيرة الغنية في افريقيا ، ومركزنا الستراتيجي يجعلنا معبرا بين اروبا وافريقيا ، معبرا اقتصاديا وحضاريا واجتماعيا وسمعتنا ونفوذنا المعنوى فى العالم الافريقى لا يقل عن سمعتنا ونفوذنا فى العالم العربى ، فأى نهج نحن سالكون ؟ وما موقفنا بين الوحدة العربية والوحدة الافريقية ؟

يجب ان ندرس موقفنا بعيدين عن العواطف ، فالعاطفة ليس لها مكان فى بناء كيان الامم وفى تخطيط مستقبلها . وانما المكان الاول لاستغلال الطاقة البشرية والطاقة الطبيعية لخلق مستقبل افضل في وجه المجموعة البشرية التى تتشابه فى العقلية وفى الكيان وتتقارب فى المكان وتتكامل فيما تنتجه ارضها وسماؤها وبحارها .

ولهذا أرى ان هذا المستقبل لا تضمنه الا وحدة كبيرة وحدة القارة الافريقية التى يجب ان تضمنا جميعا نحن العرب افريقيين وأسويين من الخليج العربي حتى المحيط الاطلسي ومن رأس الرجاء حتى سواحل البحر الابيض الجنوبية .

وسأحاول أن أدلل على سلامة هذا الرأى بالحجج الآتية :

أولا : البلاد العربية فى الشرق ترتبط هى الاخرى بافريقيا ارتباطا قويا ، فقد كانت مجازا حضاريا ودينيا لافريقيا الشرقية بمقدار ما كان المغرب مجازا حضاريا ودينيا لافريقيا الغربية ولهذا ليس بغريب ان يعيد التاريخ نفسه وان ترتبط هذه الشعوب بافريقيا مرة اخرى ارتباطا من نوع جديد تقتضيه طبيعة العصر .

واذا كانت الحدود اعتبارية دائما ، فان حدود القارات يجب الا تكون حدودا ضيقة ، بل انها قد تمتد حتى تشمل شبه الجزيرة العربية بما فيها العراق ، خاصة وان شعوب هذه المنطقة لا تختلف عن شعوب المنطقة العربية الافريقية ، ولاشعوب افريقيا غير العربية فى شىء ؟

ثانيا : القارة الافريقية بكاملها قوة ذات ممكنات اقتصادية هائلة ، وذات طاقة بشرية ضخمة . وفى استطاعتها ان تقف على قدميها ، ان هى اتحدت كمجموعة ـ بما فيها المجموعة العربية ـ وفى استطاعتها ان تبنى مستقبلها في حياة متحررة كريمة ·

ونحن نعرف ان عالما آخر قويا متحدا ذا ممكنات ضخمة قوية يواجه عالمنا الافريقى ، وقد ابتدأ بالاتحاد الاقتصادى في نطاق السوق المشتركة وقد ينتهى بالاتحاد السياسى المسلح اقتصاديا وعسكريا · وقد لا ينتهى هذا القرن حتى نواجه قوة لا قبل لنا بها ستكون أقوى الف مرة من العالم الذى واجهناه في نهاية القرن الماضى واوائل هذا القرن . فاذا لم تكن هناك قوة قارية تواجه هذا المستقبل وتستعد من الآن لتكون قوة اقتصاديا وبشريا وحضاريا ، وان اقتضى الحال عسكريا ، فليس من البعيد ان تنطلق قوة اروبا لتلتهم مرة اخرى افريقيا بنوع ما من الالتهام يتفق وروح العصر وامكانيات العالم الغزى وطاقاته .

ثالثا : الوحدة الافريقية لن تقوم على أساس جنسى أو عنصرى أو لغوى او دينى ، ولكن على اساس الارض المتكاملة والتشابه الحضارى والامكانيات الاقتصادية القابلة للتنسيق والمستقبل الموحدة على أساس الحرية والكرامة ومقاومة التخلف .

رابعا : هذا الاتجاه يمكن ان ينقذ البلاد العربية من أسباب الشقاق والتنافر التي لم تكن لها من نتيجة الا احتلال فلسطين بالصهيونية الاستعمارية بل قد ينقذ العالم العربى من سرطان الصهيونية نفسه ويقف فى وجه هذا السرطان من التغلل فى قلب القارة الافريقية التى يسعى لاكتسابها عن طريق الاقتصاد والمساعدة الفنية ، وهو فى الوقت نفسه سينقذ العالم الافريقى من هذه التجزئة المبنية على أسس واهية كالكتلة الناطقة بالفرنسية ، والكتلة الناطقة بالانجليزية . ومن هذه التبعية السياسية والعسكرية والاقتصادية ·

خامسا : هذا الاتجاه سيعين افريقيا على انشاء صناعة قوية ثقيلة تستغل فيها امكانياتها الحافلة بالطاقة ، وتستغنى فيها عن اروبا ، وقد تتعامل معها فى المستقبل على قدم المساواة . ولست فى حاجة الى القول ان هذه القوة الاقتصادية لا يمكن ان تتوفر عليها كل دولة افريقية على حدة

ولا يمكن ان تتوفر عليها مجموعة ضعيفة كالمجموعة العربية او مجموعة المغرب العربي أو مجموعة ميثاق الدار البيضاء او مجموعة برازافيل الخ ولكن اذا التقت هذه المجموعات فى وحدة افريقية فقد تستطيع الكثير مما لا تستطيعه متفرقة .

ولا أحب أن أرسم الخطة بطريقة تكوين هذه الوحدة ، ولكنى اعتقد أن ميثاق الدار البيضاء كفيل بأن يكون النواة الاولى لوحدة افريقية كاملة تحقق الاهداف التى طالما تغنى بها الافريقيون العرب وغير العرب ، وتحقق كذلك الهدف الذى تقتضيه ضرورة العصر من الاعتماد على قوة متحدة متكاملة فى مقاومة التخلف وبناء عالم أفضل

وليس يعنى ذلك ان نتخلى عن قوميتنا العربية ، أو نتخلى عن الجهود التى يجب ان تبذل للنهوض بالبلاد العربية ، كما اننا لن نطلب من الدول الافريقية أن تتخلى عن قوميتها أو عن لغاتها ، لكن معناه أن تنصهر الكتلة العربية فى الكتلة الافريقية ، وان تعمل القارة متحدة فى بناء العالم الجديد الذى نطمع اليه جميعا نحن الافريقيين عربا وغير عرب ؟

أصول الأعلام الجغرافية المغربية

للاستاذ : محمد الفـاسي
عميـد الجـامعـة المغربيـة

ان الموضوع الذى اخترته من المواضيع العلمية التـي تختص بهـا عادة الدراسات الجامعية في دوائر ضيقة . الا انه بالنسبة لظروف بلادنا من حيث تاريخها واصل سكانها الاولين من المواضيع التى يتعين علينا ان نطرقها . لانه ان كان بالنسبة لبلد مثل المانيا او ايطاليا او فرنسا مثلا ليس من المواضيع التى يتحتم نشرها بين العموم ، حيث ان اكثر من تسعين فى المائة من اعلامها ترجع باصلها الى اللغة التى لا يزالون يتكلمونها ، فهم بالبديهة يدركون معانى جبل وعين ومجاز وسهل وبحيرة وقرية الخ ، فاننا فى المغرب نظرا لكون مثل هذه الاسماء اكثرها بمختلف اللهجات البربرية ، وكذلك ما تضاف اليه من الفاظ فيتعين علينا ان لا نكون فى بلادنا وكاننا اجانب عنها ننطق بالفاظ لا ندرى لها معنى ولا نعرف لها اصلا فنقول : زلاغ ، وتغات ، وأكدير ، وتطـوان ، وتيزى ، وتلغمت ، وزيما ، وعين تاوجطات ، وافران ، وآنفا ، وغيرها مـن مآت بل آلاف الاعلام ، ولا ندرك منها الا انها كناية عن المحل الفلاني ، والحالة اننا فى الاعلام التى لها اسم عربى ، فاننا عند ما نقول الجديدة نتصور معنى وربما تاريخا حيث انها جددت بعد ما استرجعت من يد البرتغاليين ، وكذلك لما نقول الرباط او رباط الفتح فنستطيع بمجرد ذكر هذين اللفظين استحضار صفحة مجيدة من تاريخ بلادنا، وهكذا دواليك . وليس معنى هذا ان كل الاعلام الجغرافية فى كل اللغات تدرك معانيها بهذا الوضوح والا لم يكن هناك علـم

يسمى علم الاعلام الجغرافية (Toponymie) الذى يستند على علوم اللغات والجغرافية والجيولوجية والتاريخ والآثار والمعتقدات والاجتماع وغيرها من المعارف التي تعين على حل هذه الرموز المعقدة والتي عند ما تحل تساعد بدورها على توسيع نطاق معارفنا فى العلوم الاخرى .

الاعلام من مظاهر احتفاظ الامة بمقوماتها

ومن طبائع الاعلام الجغرافية انها يصعب ازالتها وتعويضها باعلام اخرى : لذلك كانت من مقاييس التاثير الاجنبى ، فالبلاد التى تعاقبت على حكمها والاستيلاء عليها امم كثيرة يظهر ذلك فى اعلامها الجغرافية ، وبمقدار هذه المخلفات يحكم على مدى اثر الامة الغالبة على الامة المغلوبة ، واذا طبقنا هذه القاعدة على بلادنا ودرسنا هذه الظاهرة بالنسبة للاستعماريين الفرنسى والاسبانى يظهر ان اثرهما ضئيل ، يكاد يكون منعدما بالمرة ، حيث اننا سارعنا فى فجر استقلالنا الى نبذ الاسماء الدخيلة ، والرجوع الى الاسماء المغربية التى لم تكن اندثرت ، وبقيت على السنة المغاربة مما يؤيد القاعدة الاخرى التى تقضى بان ازالة علم جغرافى من الوجود والقضاء عليه عملية صعبة جدا ، فلم يبق لا (كان مرشان) ولا (بولو) ولا (كريستيان) ولا (فيلا سان خور خو) ولا غيرها من هذه الاسماء التى فرضها الحكم الاجنبى . وان كان بالنسبة للعلم الاخير فان اللفظة التى عوضنا بها العلم الاجنبى ان هى الا تحريف لاسم عربى قديم كان حرفه الاسبان بدورهم ، واعنى بذلك (الحسيمة) التى اصلها المزمة ، ولى عودة لهذه النقطة وقد تم هذا التحويل بفضل غيرة المسؤولين اذ ذاك فى وزارات الاشغال العمومية والداخلية والتربية الوطنية .

ومع ذلك فقد كان للاحتلال بعض الاثر فى تغييرات نطقية دخلت على مسميات جغرافية فالعذير يقال له العاذر تحت تاثير الفرنسية (Adir) وتيفلت (1) يقال لها تيفلت ، وتيداس يقال لها تدرس واكلميم يقال لها كلمين ، الى غير ذلك من هذه التحريفات . ومن ذلك انهم كانوا اخذوا يشوهون بعض اعلامنا الجغرافية وذلك مثل حذفهم للفظة « سيدى » فى نحو : سيدى حرازم وسيدى ابو قنادل وسيدى احمد البرنوسى ، فكنت تسمعهم يقولون : ذهبت لحرازم وجئت من ابو قنادل وانا قاصد البرنوسى ، مع انه لا يخطر على بال احد من الفرنسيين

---

(1) بتشديد الفاء والتحريك

ان يقول اتيان ومالو وكانتان للمدن المسماة : (Saint-Etienne, Saint-Malo, Saint-Quentin) بل لما سموا بعض المحلات فى المغرب باسماء اوليائهم مثل : سا جان دى فضالة ، اى اللويزية لم يختصروه الى جان دى فضالة مع طول هذا الاسم ، والغريب ان بعض المغاربة كانوا يقلدونهم فى هذا ، بل منهم من لا يزال الى الان تحت تاثير هذا التدمير الاستعمارى لشخصيتنا ولمظاهر اخرى من نوعه .

الاثر العربى فى الاعلام المغربيـة

واذا درسنا نفس هذه الظاهرة بالنسبة للعرب نجد ان اثرهم كان كبيرا خصوصا فى البسائط والسهول ، وان كانوا من ناحية اخرى لـم يتـوصلوا للقضاء على كل الاعلام الجغرافية القديمة فى النواحى المذكورة ويحتاج الامر الى دراسات واسعة لتحديد مدى التحويل الذى طرأ فى مختلف جهات المغرب على الاسماء البربرية ، ونجد هذا الاثر كذلك حتى فى النواحى الجبلية التـى حافظت على اللغة البربرية ، وهذا الاثر يظهر بالخصوص فى الاعلام التى لها ارتباط بالحضارة التي ادخلها العرب لبلادنا ، فمثلا لم يكـن البـرابرة فـى النواحى الجبلية يقطعون الانهار الا بواسطة ما يسمى « أساكا » المشرع . ولم تكن عندهم جسور مبنية . فلما عمدت الدول الاسلامية الى بناء القناطر على الانهار صار يطلق عليها البرابرة اللفظ العربى محرفا الى لهجتهـم فيقـولون للجسر : (لقنضرت) ، وفى بعض النواحى حيث توجد جسور صغيرة من خشب تسمى (تلكيت) ومن جهة اخرى فان كثيرا من الاعلام الجغرافية البربريةصارت تحمل فى اسمائها المركبة الفاظا عربية كاب وأم بمعنى صاحب الشىء وصاحبته وذلك نحو : (بوسكورة) اى صاحب الحجل و (بيكرا) صاحب الضفادع ونحو (ام ابلاضن) اى صاحبة الصخور المنبسطة من آبلاض ويجمع على ابلاضن ونحو (ام اشليفن) اى صاحبة الغرارات الخ ..

كما ان اعلاما جغرافية كثيرة عربت او وضعت من جديد محـل أسماء بربرية قديمة مثل (ام الربيع) التى كانت تسمى اسيف وانسيفـن اى نهـر الانهار ، ومن ذلك (فم الحصن) تعريب (ايمى اوكدير) ، ويكتب غلطا فـى الخرائط الاجنبية فم الحسن ، ومن التاثير العربى عـدد كبيـر مـن الاسماء الجغرافية تدخل فى تركيبها الفاظ عربية مثل واد (بمعنى نهـر) وجبـل ، وقصبة ، وقلعة ، ودوار ، وعين ، ودار ، وخنق ، وقصر ، وبرج ، وسهب ، وشعبة ، وسوق ، وغيرها . ولكن هذه الالفاظ الواضحة المعنى تضاف احيانا

لالفاظ بربرية ، (كجبل زلاغ) و (عين تاوجطات) و (واد درنة) و (عين تيط) ، أما زلاغ فمعناه التيس « اى العتروس » واصله ازلاغ ، يجمع على ازلاغن . وفى البربرية عدد كبير من الالفاظ للدلالة على معنى التيس .

وبهذه المناسبة اقص على حضرات القراء نادرة وهى : اننى لما كنت فى سجن اغبالون كردوس اشتغل بدراسة البربرية . وكنا جماعة المعتقلين نطلق اسم العتروس على ذلك الشخص الذى كان المستعمرون يمثلون به رواية الملك بالرباط : عند ما كان الملك المقدس بالله محمد الخامس رضى الله عنه منفيا خارج وطنه وسمعت يوما كلمة بربرية جديدة للتعبير عن معنى « العتروس » فقلت : كم للعتروس من اسماء فى اللهجات البربرية...

فبادرنى اخونا العلامة سيدى المختار السوسى بقوله : ومن اسمائه « ابن عرفة ... »

وزلاغ هو اسم الجبل المطل على فاس من ناحية الشمال ويقابله جبل (تغات) من جهة الجنوب ومعناه العنزة (اى المعزة) وعين تاوجطات معناها العين القصيرة ، وواد درنة معناه نهر البلوط ، وعين تيط معناها عين العين . وهذه من الامثلة على اضافة اللفظة الى نفسها لعدم معرفة المعنى الاصلى . وقد كنا نسمع ايام الحماية(La source de Aïn Tit)اى عين عين العين ، ويوجد الكثير من هذا النوع من الاسماء الجغرافية المضافة الى نفسها باسبانيا حيث ان التأثير العربى كان عميقا فيقولون مثلا El Puente de la Alcantara اى قنطرة القنطرة ويقولون (Rio Guadalquivir) اى وادى الوادى الكبير وهكذا .

اثر الرومان ضعيف فى الاعلام

اما الرومان فان اثرهم كان ضعيفا جدا لدرجة اننا ان كنا نجد بضعة الفاظ فى اللغة البربرية اصلها لاتينى فان الاعلام الجغرافية التى حافظت على أصل لاتيني تعد بالوحدات منها تورتيت ومعناها الجنينة اى البستان الصغير وهى تصغير اورتي ويقال اورتو البستان من لفظة (hortus) اللاتينية التى منها مثلا كلمة (horticulture) الفرنسية ــ وتورتيت هي اسم المحل الذى بنى فيه مصطاف « افران » . اما هذه اللفظة فكانت تطلق على ما يسمى زاوية سيدى ابراهيم اسفل افران الحالى ومعنى افران الكهوف ، وهو جمع افرى .

ولم يستطع الرومان فرض اسماء لاتينية حتى على المدن والعواصم التى كانوا يحتلونها ، فــ (وليلى) اسم بربرى معناه : ذو الدفلى ، وتامودة التى توجد

آثارها بالقرب من تطوان من لفظة بربرية كذلك معناها « الضاية » اى البحيرة الصغيرة ويقال لها اليوم في اللغة تامدا .

وأثر الفينيقيين ..

اما الفينيقيون فانهم كذلك لم يتركوا كبير اثر في الاعلام الجغرافية خصوصا وان الاسماء التى وضعوها لبعض الاماكن لا يظهر اصلها الفينيقي لان اللغة البربرية كذلك من اصل سامي ، فمدينة (سلا) مثلا ، التى كان بها الفينيقيون قبل الرومان ، تحمل اسما مادته فينيقية ولكنها في نفس الوقت بربرية . ومعناها الحجر ومنها اسلى الحجرة .

و (مليلية) التى اسسها الفينيقيون وكانوا يسمونها روسدير تتركب من لفظة فينيقية هي روس اى راس العربية ولفظة بربرية هي « ادير » بمعنى الجرف فهي راس الجرف .

و (طنجة) الفينيقية كذلك واسمها الاصلي تينجي ، وكانت تنطق تينكى من مادة بربرية معناها مسيل النهر ، والى الان يوجد مسيل نهر يصب في بحيرة بنزرت بتونس يسمي كذلك طينجة .

ومدينة اصيلة التى هي من منشآت الفينيقيين كذلك اصلها من لفظ بربرى ازيل (1) معناه يجمل فازيلة هي الجميلة وكذلك مدينة لبكسوس (العرائش) الحالية ولا يزال اثر اسمها البربرى القديم في نهر لكسوس معناها « تراب رملي » .

اعلام الاشخاص والاعلام الجغرافية

وهكذا يظهر من هذا العرض ان الامم التى مرت بالمغرب لم تؤثر واحدة منها مثل تأثير العرب وان كانت اللغة العربية نفسها لم تحل محل الاعلام الجغرافية القديمة الا بنسبة محدودة ، وذلك بخلاف اسماء الناس فانها بعكس الاعلام الجغرافية تضمحل بسهولة خصوصا تحت عوامل دينية . وهكذا فانه لم يمر على الفتح الاسلامي الا بضعة قرون حتى زالت الاسماء البربرية القديمة وحلت محلها اسماء عربية اسلامية . ولا نعني بهذا اسماء العائلات فتلك ايضا من الرواسب التاريخية التى تبقى على مر العصور ولا يؤثر فيها شيء فالمسيحي او اليهودى اذا اسلم مثلا يحافظ على اسم عائلته ولكنه ينبذ اسمه الخاص فلا يتسمى بول ولا موشى وانما عبد الرحمن وعبد الله .

---

(1) بتفخيم الزاى لذلك تكتب هذه الزاى البربرية بالصاد وقد كان ابن خلدون يكتبها صادا داخلها زاى

لذلك كان ما عمدت اليه الحماية في اخريات ايامها من فرض اسماء عائلية ، حتي على من كانت لهم اسماء قديمة ؛ من اغرب الظواهر الاجتماعية ، وقد افسدت على المغاربة ناحية من شخصيتهم مما لم يقع له مثيل في امة من الامم ، حتى انك اذا سمعت اسم شخص اوربى مثلا عرفت في الحين اصله . فمولر المانى وديبوا فرنسى وغريبا لدى ايطالى وجوهنسون انكليزى وكرابولوس يونانى وكرينين اوبابوف روسى وهكذا ، بل يمكنك ان تعرف من اسماء الفرنسيين في الغالب الاقليم الذى ينتسبون اليه فمن كان اسمه مثلا (Le Goffic) تعلم انه من بريطانيا ، ومن كان آخر اسمه زايا علمت ان اصله من السافوا ومن كان آخر اسمه « نى » او « ا » عرفت انه من قورسيكا ، وهكذا . اما الاسماء المغربية الجديدة فقد صارت كمرقعة فيها من كل بلاد الله فما شئت من اسماء ايرانية وتركية ومصرية وغيرها فرضت على اصحابها فرضا .

بل تعدى الامر في مجتمعنا الى افساد اللغة ، فقد صار المؤنث مذكرا وذلك تقليدا للفرنسيين لانهم لا يؤنثون الاسماء مثل الامم السلافية واليونان وغيرهم ، فالبولونيون مثلا يقولون : السيد كامينسكى وتسمى ابنته « الآنسة كامينسكا » ، اما نحن فتبعا للمتغلبين ، نبذنا تانيث اسماء بناتنا وصرت تسمع الانسة التازى والعلوى والفاسى ، عوضا عن التازية والعلوية والفاسية كما تقتضيه لغتنا ، والامم التي تؤنث كذلك الاسماء لم تغير اسلوبها لانها لم يتسلط عليها من يؤثر فيها مثل هذا التاثير . زيادة على ان النساء كن في نظامنا المغربى يحافظن على شخصيتهن ، فلا تندمج في شخص الرجل ، والمرأة تحافظ على اسم عائلتها ، لكن الان تاخذ اسم بعلها مذكرا ، واذا مات عنها او طلقها وتزوجت غيره صار لها اسم جديد وهكذا .

كل هذا يدل من جهة على ان التاثير في اسماء الاشخاص اسهل من التاثير في الاعلام الجغرافية وان تاثير الاستعمار من هذه الناحية في شخصيتنا اعمق مما نتصور .

اللغات البربرية

هذا وانني احصر البحث في هذا المقال في الاسماء البربرية لان الاسماء العربية جلها واضحة المعنى ظاهرة الاشتقاق الا في ما قل من الاعلام: كفكيك ، مثلا وهى كلمة عربية تصغير فج فجيج تنطق بالكاف المعقودة ، وهى الممر الصغير بين الجبال او تلول الرمال .

واللغة البربرية من اللغات السامية خلافا لما كانت تدعيه المدرسة الاستعمارية . والحجج العلمية الماخوذة من النحو البربرى ومن اللغة ومن توافقها مع لغات سامية دون العربية كالعبرية مثلا لا تدخل تحت حصر . وليس هنا محل تبيان ذلك .

وهي ثلاثة اقسام اساسية ، تاشلحيت في الجنوب الغربي وتامزيغت في المغرب الاوسط والجنوب الشرقي والزناتية في الريف . وفي بعض قبائل المغرب الشرقي ، ويدخل تحت كل قسم لهجات كثيرة . وتمتاز البربرية بكونها لا اداة تعريف لها ' والاسماء والصفات المذكرة تبتدىء في الاكثر بأ (كازكاز) الرجل واحيانا با (كايزم) للاسد وقليلا باكاوشن الذئب . وهذه الهمزة اثر من اداة التعريف السامية التي هي (ها) في العبرية مثلا ، ولكنها لا تفيد في البربرية الا الاسمية ، لذلك اسميها اداة الاسمية ، وتؤنث هذه الصيغ الثلاث بزيادة تاء في الاول وتاء في الاخير ، يقال مثلا : (ازكزاو) ازرق و (تاكزاوت) زرقاء والاضافة تكون في الغالب بجعل لفظة « ن » بين المضاف والمضاف اليه ما قبله . نقول مثلا : (اغبالو ن كردوس) اى عين الكردوس وهو اسم جبل ، والجمع ، مثل العربية ، جمعان : جمع سالم ، نحو : اركاز ايركازن . وجمع تكسير مثل : اغبالو ، ايغبولا اى العيون .

ذكرت هذه النظرة الموجزة عن اللغة البربرية حتى اذا اخذنا في ذكر الاصول والاشتقاقات لبعض الاعلام كانت الالفاظ البربرية سهلة الفهم . وازيد ان انبه هنا الى اننا اذا ذكرنا اشتقاق لفظ ومعناه لا يعني ذلك ان سكان المحل المذكور وان كانوا من البرابر يعرفون معناه فقد يكونون نزحوا اليه فوجدوا السكان الاصليين يطلقون عليه ذلك الاسم ، وهم يعرفون مدلوله فقلدوهم ولم يبحثوا عن معناه فبقي مجهولا لديهم ، وذلك نحو اسم مدينة (ازرو) ، ومعناه الحجرة وبنومكيلد سكان تلك الناحية لا يعرفون هذا اللفظ وانما يقولون للحجرة اسلى ، وقد يكون اللفظ تنوسي لان لفظا عربيا حل محله وذلك نحو اغبالو بسوس والاماكن المسماة بهذا اللفظ ومعناه العين كما قدمنا لا يعرف السوسيون معناها لانهم استعاضوا عن اغبالو بتالعينت .

رواسب التاريخ

ولهذا السبب غابت معاني كثير من الاعلام الجغرافية ، وان كان

البحث والاستقراء للهجات الاخرى فى مختلف نواحي البلاد التى كانت البربرية لغتها قبل الفتح الاسلامى من واحة سيوة بمصر التى لا يزال الى الان اهلها يتكلمون البربرية الى شاطىء المحيط الاطلسى يساعدان على حل الغاز الاعلام الجغرافية . فكم من اسم محل ضاع معناه فى المغرب ولا زال حيا مستعملا فى جبل نفوسة بطرابلس الغرب مثلا او عند التوارك .

وينبغي كذلك ان ننبه الى انه اذا كان علم الاشتقاق فى ما يرجع للالفاظ اللغوية من العلوم الدقيقة التي تتطلب معرفة واسعة بعلم مخارج الحروف وباللغات الاجنبية القديمة والحديثة ، وبقواعد علم الاشتقاق نفسه ، فان هذا بالنسبة للاعلام الجغرافية اكثر صعوبة ويجب فيه التحري والحذر اذ لا يكفي ان تتقارب لفظتان في النطق لنقضي ان احداهما اصل للاخرى ، خصوصا اذا لاحظنا ان الاعلام الجغرفية تجمد حتى ان علماء هذا الشان يسمونها رواسب التاريخ . اما الالفاظ اللغوية المقابلة لها فانها تتطور وتعيش . وان غير الاخصائيين يتعجبون عند ما يقال لهم ان اللفظة الفلانية اصلها كذا ، وتكون حروف اللفظة الاصلية كلها تقريبا تغيرت فى اللفظة المشتقة وان كان ذلك التغير وقع حسب قواعد وضوابط ثابتة وهكذا نعلم مثلا ان اسماء اسفي وفاس وكرسيف ووانسيفى اسم ام الربيع القديم كلها من اصل واحد هو اسيف بمعنى النهر ، ويجمع على اسافن ، وكذلك اسماء واويزعت وايموزار وبوازر محل معدن الكوبالت المعروف ، كلها من اصل واحد ومادة واحدة هي ازرو معناها الينبوع الصغير .

امثلة من الاعلام

والان استعرض امامكم مجموعة من الاعلام الجغرافية مبينا اشتقاقها واصلها واكتفى بمحلات معروفة والا فان الاعلام الجغرافية تعد بالآلاف وقد توصلت الى تحقيق عدد كبير منها ساضمه الى قاموس جغرافي اشتقاقي اعمل فيه منذ ايام الاعتقال بالنيف وباغبالون كردوس وهذه الدراسات في اللغة البربرية وفى اسماء الحيوان والنبات والاعلام الجغرافية والشعر البربرى والامثال كل ذلك من نعم السجن والاعتقال وما كان يقصد الى هذا المستعمر وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم .

ادرارن درن

هو اسم جبل الاطلس ، ومعنى آدرار الجبل ولا شك ان اصل درن من الجمع فيكون المعنى جبل الجبال ، آدرارن ادرارن .

آكدال

المرعي ويطلق في الغالب على مرعى محظور على غير جماعة معينة ، وتوجد اعلام جغرافية كثيرة في المغرب تحمل هذا الاسم منها ، آكدال ، غزيفن ، المرعى الطويل ، آكدال ن تاكمارت ، مرعى الفرس ، آكدال ن الما ، مرعى المروج الخ .

آنفا

من الكلمات التي تدل على الربوة والكدية وهي اسم الدار البيضاء القديم .

أغبالون تسردان

عين البغلات ، وفي الخرائط والكتب الفرنسية ن سردان غلطا وهو اسم مركز آيت مسعود من بني مكيلد .

أغمات

مدينة كانت موجودة قبل تاسيس مراكش ويرجع اشتقاق اسمها الى مادة مغ بمعنى صبغ وخصوصا الصبغ باللون الاحمر فكانها المصبوغة بالاحمر .

آفنا

ممر ضيق بين الجبال ، وتصغيره تافات معناه شعبة تنزل منها عادة مياه الامطار .

أزمور

الزيتون البرى ، وتسمى به اعلام جغرافية كثيرة كمدينة ازمور وقبيلة زمور الشلح وبني زمور ويجمع على ازمران ومنه واد زمران بالشاوية .

ازغار

البسيط ــ والنواحي المنبسطة اسفل الاطلس المتوسط تسمى ازغار وكذلك بسائط الجنوب باسفل الاطلس الكبير .

ازيلال

الممر بين الجبهتين والممر عموما .

اما اكدير : فهي لفظة كثيرة الانتشار في كل الشمال الافريقي ، ومعناه الاصلي هو الجدار وتنطق في الامزيغية وفي الزناتية اجدير ومنها مدينة اجدير في الريف التي كان اتخذها ابن عبد الكريم الخطابي عاصمة له عند ثورته على الاستعمار الاسباني واجدير لمحل بزيان ، ومدينة تلمسان تسمى كذلك اكدير او مدينة الجدار .

وقد تطور المعنى من حائط يحيط بالشيء ويحفظه الى معنى المحل يتحصن فيه وتجعل فيه المنتوجات خوفا عليها من هجوم الاعداء ، فصار معنى اكدير الحصن والمخزن .

وتوجد اعلام جغرافية تحمل اسم اكدار وهو الجمع وتاكديرت وهو التصغير وتكدار وهو جمعه .

وفي النواحي التي تسود فيها تامزيغت يستعمل ايغرم عوض اكدير ويطلق عليه في البلاد الصحراوية اسم قصر ، والاماكن المسماة باكدير وايغرم وقصر ومشتقاتها في المغرب لا تكاد تحصى .

اكلمام ازيزا

البحيرة الخضراء او الزرقاء ، لان لفظة ازكزاو التي تنطق كذلك ازيزاو وازيزا معناها ازرق واخضر ومؤنثة تازيزاوت ، ولا علاقة لهذه اللفظة بعزيزة كما يسميها بعضهم جهلا باللغة البربرية .

اكلمام سيدي علي

بحيرة سيدي علي ، لفظة اكلمام وجمعها وتانيثها تدخل في تركيب اسماء كثيرة منها كلميما واكلميم وتكلممين « البحيرات الصغيرة » جمع تاكلمامت .

اكلموس

القب (غطاء الرأس من الجلابة) محل بزيان قرب مريرت في غربها .

اسيف ملول

النهر الابيض بالاطلس .

اموزار

الشلالات ، وهو جمع امازر ، وفي المغرب اعلام كثيرة يدخل في تركيبها مادة ازر كما قدمنا .

افري ن يطو

مغارة يطو ـ وهي هوة سحيقة بناحية تازا يقصدها السياح الان ويكثر الكلام عليها في الصحف ويسمونها اسماء غريبة مثل (Frigatto Friatto) الخ ويتمحلون لها الاشتقاقات البعيدة لجهلهم . ولفظة افري وتصغيرها وجموعها تدخل في اسماء جغرافية كثيرة ، فزيادة على المحلات العديدة المسماة افران فهناك تيفريت وتيفرتين وغيرها .

افنــي

المحل الخالي ـ هذا المعنى الاشتقاقي ولكن هذه اللفظة تطلق على كثير من الاعلام الجغرافية في الاطلس الكبير كقمة افني في جبـل توبكـال ، ويبلغ علوها 4.100 ميتر ، وكتيزي افني وكبحيرة افني الخ . وتوجد اعلام اخرى مشتقة من جمع الكلمة افنوان ومن تصغيرها تيفنيت ، وتيفنوت في اعلى وادي سوس من هذه المادة .

ايمــي ن تانوت

فم البؤيرة ـ وتوجد اعلام كثيرة فيها لفظة ايمي الا انها في النواحي الجنوبية الغربية عربت غالبا الى فم ومنه فم زكيد وفم الحصن .

اما تانوت فهي مؤنث وتصغير انو ، ويجمع على اونا ، وتجمع تانوت عـلى تيـونـا .

اوكا امـدن

يعطي للناس او يعلو على الناس والمعنى الاول يقصد به انه بثلوجه الكثيرة يغدق الخيرات على الناس عند ما تصير ميـاها تسقـي الحقـول والبساتين .

اولمـاس

هذه الكلمة معناها حفرة الماء ، وتوجد اعلام كثيرة تدخل فيها هذه المادة منها الميس بكيكو وبمرموشة ومنها تالمست قرية بكـلاوة وجمعهـا تلمسان .

بـوازكـارن

ابو الحبال ـ مفرده ازيكر ـ مركز الاخصاص بسوس .

تـازة

جاءت من لفظة تيزى التى من معانيها الصخرة وتجمع على تيزا ـ وتازة واقعة على صخرة اعلاها منبسط .

تازريـن

التين ـ جمع تازارت ـ شجرة التين (الكرموس) وكثير من الاعـلام يحمل هذا الاسم ومشتقاته منها واد بناحية زيز العليا ببلاد آيت حديدو .

تامسنـا

البسيط ـ وكان يطلق على ناحية متسعة تمتد على كل بسائط المحيط الاطلسى والنسبة اليها مسناوى .

تـاغـزوت

« الولجة » منخفض ـ قاع ـ مسيل النهر ـ وكذلـك فدان كبيـر منبسط لا حجر فيه ، ومن هنا تطلق فى تاشلحيت على ملعب الخيل ، وذلك مثل تافراوت .

تافراوت

محل منخفض ، ومن هنا تطلق على ملعب الخيل عند نتيفة ، ومن معانيها شبه مدود لشرب الماشية ومن معانيها عند آيت يزدك الحلف والتحالف لانهم كانوا يجتمعون فى منخفضات وقيعان تضم جموعا كثيرة للتحالف ، فمن يقصد تافراوت فانه يقصد التحالف ، وتافراوت اسم محلات كثيـرة بناحية اسيف ملول وبسوس وغيرهما .

تاساوت

بطن وسهل ومنخفض ـ منه وادى تاساوت .

تـاهـلا

من الالفاظ البربرية التى تدل على معنى العين ، وهـذه الالفاظ هـى اغبالو ـ تيط ـ تاهلا (وتصير تلافى بعض اللهجات) والعنصر (وهى اللفظ العربى لكن يجمع على لعنوصر) ومنه جاءت التسمية الفرنسية للقرية القريبة من صفرو التي كانوا يسمونها « آنوسور » وتالعينت وهى تشليح العين .

وتوجد اعلام جغرافية كثيرة تدخل فيها تاهلا ومؤنثها وجموعها من ذلك مثلا تهيلى وهو اسم محل فى الغرب وتيهالات بالجنوب .

اما تيط فهى تدل على معنى عين البصر وعين الماء ، وتجمع على آلن فى المعنى الاول وعلى تيطا وين وتاطوين فى المعنى الثانى ومنها مدينة تطوان التى صرنا نسميها هكذا تبعا للنطق الاسبانى (Tétuan) تطوان ، والا فهى تطاون ، وتيط مليل ، العين البيضاء بالقرب من الدار البيضاء وعين تيط فى دكالة .

وبتونس تاطوين كانت منفى للزعماء الدستوريين ايام الحماية الفرنسية .

وتوجد محلات فى الصحراء يطلق عليها اسم والن بمعنى ذات العيون ، ولا تستعمل في اللغة لفظة الن الا بمعنى عيون البصر .

تلوات

الشعبة ، وهى لفظة قديمة ترادف لفظة تلات المستعملة اليوم بهذا المعنى وهى تجمع على تلتين .

تمحضيت

الحارسة وهى معروفة ببنى مكيلد .

تمنارت

مشتقة من مادة امنير وهى حجارة تجعل فى الحقول كعلامة للحد وتجعل فى الطرق ايضا للدلالة على الاتجاه الصحيح ، وفى الاعلام الجغرافية توجد امنارن وامنارن وامنار وغيرهما وتمنارت مدينة حديثة العهد بنيت سنة 1295 بين الصويرة واكدير في قبيلة اداكيلول بحاحة .

تيسزى

معناها الباب فى الجبل والمجاز ، وتوجد فى المغرب مآت الاعلام الجغرافية تحمل هذا الاسم في مختلف جهات المغرب لان هذه اللفظة لها نفس المعنى فى كل اللهجات البربرية الامزيغية والشلحية والزناتية .

تيزى تلغمت

مجاز الناقة ــ فى جنوبى ميدلت على نحو 20 كيلومتر .

تيزى ن تغطن

ممر المعزات – بمحل معروف بالقرب من افران .

تيزى ن تيشكا

مجاز المراعي وهو فى جنوبى مراكش .

تيطاوين

العيون – بين مسمرير وآكرد زكزاون

تينلوف

والنطق الصحيح هو تينضوف معناها مركز الحراسة وهي في جنوبى وادى درعة وقد كانت بها قصبة لحراسة الطريق المؤدية الى شنقيط ، واشتقاق الكلمة من اضاف واضوف ومعناه مركز حراسة ، وتى ن ذات مركز الحراسة فالاصل تي ن اضوف ، ومن الاعلام الجغرافية التي يدل معناها على الحراسة والعسة اكديم ومنها تمخيضت اى الحراسة من الكلمة العربية المغربية حضى .

ومن الالفاظ الدالة على الحراسة طاوز ، اشتقاقها من اوز بمعنى حرس في الليل والطاوز تنطق احيانا الطاوس لقرب مخرج الزاى من السين ولان الطاوس له معنى فى العربية فيظن انه هو ولا علاقة بينهما .

تينمل

ذات السطوح المزروعة واصلها تي ن اى ذات ايمل الجدار من حجارة يحصر بها التراب فى سفح الجبال والتلال للزراعة .

تينغير

صاحبة الجبل – الاصل تين اغير وهي عاصمة بلاد تدغة .

تيشكا

المراعي الجبلية العالية .

توملين

البيضاوات جمع تومليلت – ولفظ الابيض يعبر عنه بأومليل وامليل وآملال وأملال واملول ، وتوجد اعلام جغرافية لا تحصى يدخل فى تركيب

اسمها هذه المادة الا انها تلتبس بمادة ايمل التى معناها الجدار من حجارة يحصر بها التراب فى سفح الجبال والتلال للزراعة .

دكالة

اصل هذه الكلمة من دو ومعناه اسفل وتحت وأكال ومعناه الارض والبلد ، فيكون المعنى ارض منخفضة اى بسيط .

الريش

الربوة او سفح الجبل أصله ريكت والكاف تنطق شينا فصار ريشت وأدغمت التاء فى السين وهو مركز بآيت يزدك .

زيما

بحيرة ماؤها ملح بالقرب من آسفى يستخرج منها الملح اصل الكلمة من مادة زم بمعني الماء الاجاج ومنهاتي ن زيميم قرية بكدميوة .

كروشن

وقف الذئب – مركز قبيلة ايحاند على وادى سرو فى شمالى أغبالوا تسردان .

كلميما

من تحريفات اكلمام او جمعة : البحيرة – قرية بآيت مرغاد .

م ابلاضن

ام البلاطات اى هنا الحجرات المستوية – منجم رصاص يبعد عن ميدلت 50 كيلومترا .

م افيس

ام الضبع – منجم بناحية أرفود على بعد 70 كيلومترا من اسفى .

عارى عياش

جبل العياشى – جبل عظيم فى الاطلس الكبير قمته من أعلى قمم الجبال المغربية 3777 م وهى فى منتهاه من جهة الشمال الشرقى .

عين غبيلة

عين العوينة (تصغير عربي للفظة آغبالو البربرية – العين) فى الشرق الجنوبى للبيضاء .

غرم العلم

اصلها : اغرم العلم اى قصبة العلم وهكذا يسميه البرابرة وهو مركز بـآيت سـرى .

فـاس

قدمنا ان أسفي وفاس واكرسيف واسيف وانسيفن كلها من اصـل واحد وذلك ان لفظة اسيف معناها النهر وتجمع على اسافن جمع تكسير انما هذا الجمع يشعر بأنه كان يوجد مفرد على صيغة اساف ـ فمنه أسفى ومنه ساف التي قلبت وأعطت فاس ، وقد ورد في القرطاس ان ساف كان اسم المحل الذى بنيت فيه مدينة فاس وان المولى ادريس الثـانى قلبـه الى فاس ، وهذه الحكاية سواء كانت صحيحة اولا فانهـا تدل على ان العشائـر القبلية من زواغة وغيرها التي كانت نازلة هناك كانت تدرك ان فاس مقلوب ساف ، أما كرسيف فمعناه بين الانهـار (بيـن الويـدان) أمـا اسيف وانسيفن فقد حل محله كما قدمنا اسـم ام الربيع ، والربيـع هـنا بمعنى حشائش المراعى لانها من فضل مياه هذا النهر الكبير ، اما تانسيف فاصله تامسيف اى قرب النهر ، ولفظة أسيف بمؤنثها وجموعها تدخل فى تركيب عدد كبير من الاعلام الجغرافية .

الشـاون

المدينة المعروفة فى الشمال واللفظة من اشاون جمع اش اى القرن .

واويـزغـت

قد قدمنا كذلك ان اسماء واويزغت وايموزار وبوآزر كلها من اصل واحد ، وذلك ان مادة أزر تفيد معني الينبوع الصغير ، وعيون صغيرة ومنها تطور المعنى الى تجمع هذه المياه وانصبابها في منحدر فجاء معنى الشلال وهكذا

فواويزغرت اصلها واويزرت وتوجد محلات فى المغرب تسمى هكذا ، ومعناه ذات الينبوع الصغير وايموزار جمع أمازر معناه الشلال وبوآزر معناه العين القليلة الماء ، ومن هذه الاعلام كذلك تمازيرت اى القريبة من الشلال.

واريد ان اختم هذا الحديث بقصة الحسيمة وهى ان هذه اللفظة لا أصل لها مطلقا لا فى العربية ولا فى البربرية ، وانما هى من مخترعات الذين غاروا على لغتنا وأعلامنا ان تفسدها اللكنـة الاعجميـة فأرادوا ان يردوا لفظـة الوسيماس (Alhucemas) الى أصلها العربى ، فقالوا الحسيمة كما لو اننا

اردنا ان نرد الخسيراس الى اصلها العربى فقلنا الخزيرات ، وكذلك فعلنا تبعا للنطق الاسباني والحالة انها الجزيرة ، أما اصل (Alhucemas) فهو (المزمة) وهى مدينة من أولى المدن التى اسسها العرب ببلادنا اذ فى اول الفتح الاسلامى تكونت قبل كل دولة عربية امارات صغيرة على ضفاف البحر الابيض المتوسط ، كانت من جملتها امارة بني منصور التى اتخذت عاصمتها مدينة المزمة ، ولما اتصل الاسبان بهذه الفرضات وسمعوا هذه اللفظة نطقوها على عادتهم في نطق الزاى سينا المزمة ثم حرفوها لاسباب لغوية يطول شرحها الى الوسيماس ، وكل كتب الجغرافية عند المغاربة وكل المؤرخين يسمونها المزمة ، وقدظن الذين اصلحوها وهم يرون انهم يرجعونها الى اصلها ان الهاء فى الهوسيماس ، هي حاء ، فقالوا الحسيمة وقد كنت كتبت فى هذا الموضوع لوزارة الداخلية حتى يزول هذا المنكر وتحسم مادته ويرجع الى الاصل العربى المغربى الذى يذكر بتاريخ مجيد .

حياة ابن الخطيب المغربية

للدكتور احمد مختار العبادى

المؤرخ الوزير الغرناطى لسان الدين بن الخطيب (713 - الى 776 هـ - 1313 - 1374 م) شخصية مرموقة في ميادين العلم والسياسة . كتب مؤلفات وبحوثا عديدة فى مختلف النواحى العلمية المعروفة فى عصره كالادب والتاريخ والطب ، والتصوف الخ . وقد أورد هو نفسه قائمة بأسماء مؤلفاته فى الترجمة التى عقدها لنفسه فى ءاخر كتابه المعروف بالاحاطة فى أخبار غرناطة . وهذه المؤلفات لاهميتها العلمية ، وقلة المصادر الاخرى المعاصرة تعتبر مصدرا اساسيا فى كل ما نعرفه عن تاريخ وحضارة الغرب الاسلامى فى تلك الفترة .

وبعض هذه المؤلفات مطبوع ومنشور والبعض الآخر اما مخطوط أو مفقود . وقد حاول كثير من المؤرخين والمستشرقين حصر هذه المؤلفات فى المعاجم والفهارس التي افردوها للعلماء والكتاب العرب . غير ان هذا الحصر رغم اهميته ، يشوبه شيء من التعميم ، اذ لم يفرق فيه بين ما كتبه ابن الخطيب فى وطنه الاصلى غرناطة ، وبين ما كتبه فى وطنه الثانى بلاد المغرب الاقصى . فالمعروف ان حياة ابن الخطيب العلمية والسياسية كانت موزعة بين هذين القطرين الشقيقين ، كما ان منصبه الخطير كوزير لملوك بنى الاحمر في غرناطة ، جعله عرضة لتقلبات الظروف السياسية وما تبعها من نفى وتشريد الى بلاد المغرب .

سفير اندلسي بالمغرب

لقد زار ابن الخطيب مدينة فاس كسفير لسلطان غرناطة ابى الحجاج يوسف سنة 749 ﻫ ثم لسلطانها ابى عبد الله محمد الخامس الغنى بالله سنة 755 ﻫ. ولقد نجح ابن الخطيب فى مهمته هذه نجاحا كبيرا ولا سيما فى سفارته الاخيرة التى مدح فيها سلطان المغرب ابا عنان فارس المرينى بالقصيدة التى مطلعها :

خليفة الله ساعد القدر   علاك ما لاح فى الدجى قمر

فما كان من السلطان ابى عنان الا ان اجابه لجميع طلباته .

كذلك التجأ ابن الخطيب الى المغرب مرة ثالثة عندما نفى مع سلطانه محمد الخامس سنة 760 ﻫ (1359 م) . فمن المعروف انه فى هذه السنة حدث انقلاب فى مملكة غرناطة ادى الى خلع سلطانها المذكور ، وتولية اخيه اسماعيل ابن يوسف مكانه . وقد تمكن السلطان المخلوع من الفرار الى المغرب الاقصي والالتجاء الى سلطانه ابى سالم ابراهيم المرينى . وصحب السلطان محمد الخامس الى المغرب بعض افراد حاشيته ومماليكه ووزرائه نخص بالذكر منهم وزيره لسان الدين ابن الخطيب .

وقد رحب بهم سلطان المغرب ، وانزلهم فى بعض قصوره بمدينة فاس عاصمة الدولة المرينية . ودامت مدة النفى فى بلاد المغرب ثلاث سنوات تقريبا (760 — 763 / 1359 — 1962) لم يخلد فيها ابن الخطيب الى الراحة والخمول فىمدينة فاس كما فعلمعظم اللاجئينالسياسيين منمواطنيه بل عكف على القراءة والتأليف وقرض الشعر والتنقل بين البلدان المغربية لمشاهدة آثارها والاتصال بعلمائها . ثم انتهى به المطاف الى مدينة سلا حيث استقر بها وبضاحيتها شالة مرابطا بجوار اضرحة ملوك بنى مرين .

نكبة .. بعد نكبة

وتشاء الاقدار ان يصاب ابن الخطيب فى اقرب واعز الناس اليه فتموت زوجته وام اولاده التي كانت تقيم معه فى هذا المكان بأقصى المغرب. وهنا تشتد آلامه وتغمره موجة من الحزن والتصوف تظهر آثارها بوضوح فى نظمه ونثره . وفى هذا يقول :

« وفى السادس لذى قعدة من عام اثنين وستين وسبعمائة المذكور ، طرقني ما كدر شربي ونغص عيشي ، من وفاة ام الولد عن اصاغر زغب

الحواصل بين ذكران واناث في بلد الغربة ، وتحت سرادق الوحشة ، ودون اذيال النكبة، تجلت عليها حسرتي، واشتد جزعي ، واشفيت لعظم حزنى ، اذ كانت واحدة نساء زمانها جزالة وصبرا ومكارم اخلاق ، حازت بذلك مزية الشهرة حيث حلت من القطرين ، فدفنتها بالبستان المتصل بالدار بمدينة سلا ، ووقفت على قبرها الحبس المغل لمتولى القراءة دائما عليها . وصدر عنى مما كتب على ضريحها وقد اغرى به التنويه والاحتفال :

روع بالـي وهـاج بلبالـي — وسامنـي الثكل بعد اقبال
ذخيرتى حين خانني زمنـي — وعدتـي فى اشتداد اهوال
حفرت فى دارى الضريح لها — تعللا بالمحـال فى الحـال
وغبطـة توهـم المقـام معـي — وكيف لى بعـدها بامهـال
سقى الحيا قبرك الغريب ولا — زال مناخا لكـل هطال
قد كنت مالى لما اقتضى زمنى — ذهاب مـالى وكنت آمـالى
أما وقـد غاب فى تـراب سلا — وجهك عني فلست بالسالى
والله حزنى لا كـان بعد على — ذاك الشباب الجديد بالبالى
فانتظرينـي فالشوق يقلقنى — ويقتضى سرعتى واعجالى
ومهـدي لى لديـك مـضجعـا — فعن قريب يكـون ترحالى
واسمـك مقلـوبه يبيـن لـي — مآل امرى فى معرض الفال

انتـاج زاخـر

غير ان هذه الكارثة الفادحـة التى حلت بابن الخطيب لـم تحـد من حيويته وقدرته على التأليف ، اذ استمر فى منفاه يقرأ ويكتب فى شتى نواحى العلوم والفنون . وحسبنا ان نشير الى بعض مؤلفاته التـي كتبها فـى هذه الفتـرة مـن حيـاته :

اولا : كتاب اللمحة البذرية في الدولة النصرية .

ويتناول الكلام عن مدينة غرناطة وتاريخ ملوكها وصفات اهلها وعاداتهم ومن سياق الحوادث ــ نفهم بصفة قاطعة ان مـعظم هذا الكتـاب قـد الف بالمغرب فى خلال هذه الفترة ، وان كان يبدو ان ابن الخطيب قد اتمه بصفة نهائية بعد عودته من منفاه الى غرناطة بمدة قصيرة اذ يشير فى نهاية الكتاب الى أن تأليفه قد تم فى اوائل سنة 765 هـ (1364م) .

والكتاب يقع فى جزء واحد ومطبوع فى القاهرة سنة 1374 هـ .

ثانيا : كتاب نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب

وهو عبارة عن مذكرات شخصية لابـن الخطيب عن هذه المـدة التـى قضاها منفيا في بلاد المغرب . ففيه نجد وصفا لمشاهداته فى البلاد المغربية مع ذكر الاحداث السياسية التى مر بها المغرب فى تلك الفترة . وهذا الكتاب يقع فى ثلاثة اجزاء وجد منها الجزء الثانى فقط ، وقد نشرت بعض قطـع منه (I) وما زلت اعمل على نشر هذا الجزء كاملا ان شاء الله. هذا وقد عثر اخيرا فى خزانة الرباط على مخطوط لابن الخطيب يحتمل ان يكـون الجزء الثالث من نفاضتـه .

ثالثـا : كتاب معيار الاختبار فى ذكر المعاهد والديار .

وهو عبارة عن رسالة فى وصف بعض مدن المغرب والاندلس مكتوبة فى اسلوب فن المقامات المعروف فى الادب العربى . وقد نشر الجزء الخاص بالاندلس المستشرق الاسبانـى سيمونيت (Simonet) كمـا نشر الجـزء الخاص بالمغرب المستشرق الالمانى مولر (Muller) ، واحمد يمنى بفاس . ثم أعدت نشرها كاملة ضمن مجموعة رسائل ابن الخطيب التـى اخـرجتها تحت عنوان (مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب في بلاد المغرب والاندلس ـ جامعة الاسكندرية 1958) .

رابعا : كتاب الحلل المرقومة فى اللمع المنظومة .

وهو ارجوزة او الفية من الف بيت فى اصـول الفقه . وهـذا الكتاب مفقود غير أنه توجد بعض الشروح التى كتبت حوله مثل شرح ابن خلدون وشرح ابى سعيد بـن لب المسمى بالطرر المـرسومة عـلى الحلـل المرقومـة (مخطوط بالزاوية العياشية قسم الاصول) .

خامسا : كتاب رقم الحلل فى نظم الدول .

وهو ارجوزة تاريخية تتناول تاريخ الدول الاسلامية ، وقد طبع هذا الكتاب فى تونس سنة 1316 هـ ولقد خلط بعض المؤرخين أمثال الغزيـرى (Casiri) وغيره ، بين هذا الكتاب وكتاب الحلل المرقومة السالف الذكر ، فقالوا بأنهما كتاب واحد مـع انهما باعتراف ابـن الخطيب نفسه كتـابان

(I) هذه القطع نشرت على التوالى فى صحيفة معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد (1959 – 1960) فى مجلة هسبيرس Héspéris (1959) ، وفى كتاب مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب (الاسكندرية 1958)

منفصلان احدهما وهو رقم الحلل يتناول تاريخ الدول الاسلامية والآخر وهو الحلل المرقومة يتناول أصول الفقه .

ويشير ابن الخطيب الى أنه اهدى كتابه هذا ، رقم الحلل ، الى سلطان المغرب ابى سالم ابراهيم المريني ، فكتب له السلطان يقول : « قد وصل الرجز المعجب المعجز » وأمر باضعاف جراياته حتى بلغت فى كل شهر خمسمائة دينار ، كما كتب الى سلطان غرناطة المغتصب رسالة يطلب منه فيها الافراج عن ممتلكات ابن الخطيب وأمواله المصادرة وفيها يقول : « وان كنتم تبخلون بماله ، فعرفونا بمقدار ثمنه ليصلكم من قبلنا » . وهذه لفتة كريمة تدل على اهتمام وتقدير سلاطين المغرب للعلم والعلماء .

سادسا : اراجيز وأشعار اخرى مختلفة نظمها ابن الخطيب فى هذه الفترة ايضا مثل الارجوزة المعلومة وهى كتاب فى علاج السموم ومثل تخصيص الرياسة بتلخيص السياسة وهى فى نحو ستمائة بيت فى فن السياسة ومثل كتاب السحر والشعر ويشتمل على اناشيد تضمنت ضربى المطرب والمرقص الخ (1)

سابعا : كتاب كناسة الدكان بعد انتقال السكان .

وهو عبارة عن مجموعة من الرسائل السلطانية من املاء ابن الخطيب على لسان سلطان غرناطة وموجهة الى سلطان فاس . وقد نص ابن الخطيب فى بعض رسائله وكتب على أنه جمعها بمدينة سلا فى ذلك الوقت (2) ، وهذا الكتاب لا يزال مخطوطا فى خزائن الرباط وفاس والاسكوريال .

الاستقرار فى المغرب

على ان الشيء الذى يهمنا بصدد هذه الفترة ، هو ان لسان الدين ابن الخطيب كان قد بدأ يعد العدة للاستقرار نهائيا فى المغرب ، فأخذ فى شراء الاراضى والمساكن والضياع . وقد يؤيد هذا الخطاب الذى وجهه الى قاضى

---

(1) راجع المقال الذى كتبته حول مؤلفات ابن الخطيب فى المغرب (Héspéris 1959, 3-4 trimestres)

(2) راجع (مقدمة ريحانة الكتاب لابن الخطيب ـ مخطوط بخزانة الرباط رقم 788 ، 757 ، 786 د ، مخطوط ـ بالاسكوريال رقم 1825) أنظر كذلك (المقرى : نفح الطيب جـ 7 ص 135)

تامسنا (الشاوية) الرحالة الطنجى المعروف ابن بطوطة يخبره فيه بشراء ارض بجواره (1) ، والخطاب الذى ارسله الى الشريف ابى عبد الله بن نفيس بخصوص شراء مسكن منه (2) .

على اننا نلاحظ فى نفس الوقت ان هذه الرغبة فى سكنى المغرب كانت ممتزجة بحنين جارف لوطنه لم يتردد ابن الخطيب فى اظهاره والتعبير عنه شعرا ونثرا طيلة مقامه بسلا وشالة وفاس ومثال ذلك قوله :

« مزق شملى ، وفرق بينى وبين اهلى، وتعدى على ، وصرفت وجوه المكايد الى ، حتى اخرجت من وطنى وبلدى مالى وولدى ومحل جهادى وحقى الذى صار لى طوعا عن آبائى واجدادى » .

وقوله كذلك فى القصيدة التى نظمها على لسان سلطانه فى الحنين الى غرناطة :

ايام قربك عندى مالها ثمن — لكننى صدنى عن قربك الزمن
حططت بعدك يا أهلى ويا وطنى — رحل الغريب فلا أهل ولاوطن
قد حل حبك من قلبى بمنزلة — لا الماء يجرى مجاريها ولا اللبن
لما تحملت عنك الركب مرتحلا — والقلب فيك غداة البين مرتهن
والله ما سكنت نفسى الى أحد — يوما ولا راق عينى منظر حسن (3)

ويبدو لنا من كلام ابن الخطيب وافعاله انه كان يتنازعه عاملان نفسيان عامل الحنين والواجب الذى يربطه بوطنه غرناطة ، وعامل البقاء والامن الذى كان ينشده فى أرض المغرب . وكيفما كان الامر فقد انتهت مدة النفى بعودة السلطان محمد الخامس الى عرشه فى غرناطة سنة 763 هـ (1362 م) وذلك بعد حروب وخطوب شد ازره فيها ملك قشتالة الاسبانى بدرو القاسى (Pedro El Cruel) وسلطان المغرب أبو سالم ابراهيم المرينى .

واضطر ابن الخطيب بناء على طلب سلطانه ان يعود هو الآخر للقيام بأعباء الوزارة ولو لفترة قصيرة من الزمن وفى ذلك يقول هو نفسه : «واسرعت الى قصده (اى الى محمد الخامس) بعد أن قررت عزمى على

---

(1) ابن الخطيب : نفاضة الجراب ورقة 44 ــ 45
(2) المقرى : نفح الطيب ج 8 ص 151 .
(3) نفاضة الجراب ورقة 68 .

تعجيل الاوبة وعملي على اسراع العودة ، وتركي الاهل والولد تحت جناح الحرمة والجوار المريني (1) .

سياسة موحدة للمغرب والاندلس

ولكن يبدو ان تمسك سلطان غرناطة بوزيره ، نظرا للظروف التي مرت بها مملكة غرناطة اثناء حروب قشتالة وأراجون ، قد حال دون عودة ابن الخطيب الى المغرب بالسرعة التي كان يتوقعها

على أن المهم هنا هو ان ابن الخطيب ظل على مبدئه الذى رسمه لنفسه تجاه تلك البلاد من حيث هى ملجأه الاخير الذى به أمنه وسلامته وأراضيه وأمواله .

ويبدو لنا كذلك ان حماية تلك المصالح الشخصية قد أثرت فى سياسة ابن الخطيب كوزير مستبد ، فجعلته يرسم لغرناطة طوال حكمه سياسة خارجية ثابتة تجاه المغرب قوامها الارتباط بعجلة فاس ومحاولة ارضاء سلاطين بنى مرين فى كل ما يطلبونه من مملكة غرناطة ، وفى ذلك يقول ابن خلدون : « وكانت عينه ممتدة الى المغرب وسكناه ، فكان لذلك يقدم السوابق والوسائل عند ملوكه (2) .

ومن أمثلة هذه السياسة التقربية من ملوك فاس ، نذكر موقف ابن الخطيب من الامير المرينى عبد الرحمن بن ابى يفلوسن ، حفيد السلطان ابى الحسن المرينى ، الذى عينه محمد الخامس شيخا لجنود الغزاة المغاربة بغرناطة سنة 769 هـ ، فعلى الرغم من شهامة هذا القائد وبسالته الحربية التى أشادت بها المصادر المسيحية فى الحملة التى شنها محمد الخامس على قرطبة سنة 770 هـ حيث استطاع هذا الامير ان يحتل بعض ابراجها باعتراف الاسبان انفسهم (3) ، نجد ابن الخطيب يتجاهله تماما فى كتاباته عن هذه الحملة، بل ويحمل سلطان غرناطة على القبض عليه فى نفس السنة بحجة انه يتآمر سرا ضد سلطان فاس ، وان كان الغرض الاساسى على حد قول ابن

---

(1) ابن الخطيب : أعمال الاعلام (القسم الثانى الخاص باسبانيا) ص 261 (نشر ليفى بروفينسال الرباط 1934).

(2) المقرى : أزهار الرياض ج 1 ص 234 .

(3) راجع التفاصيل فى (Lopez de Ayala : Cronica de los Reyes de Castilla, 1, p. 526, Madrid 1779).

خلدون هو اكتساب رضاء السلطان عبد العزيز الذى كان يرى فى الامير عبد الرحمن منافسا يهدده (1) .

وهناك امثلة اخرى مشابهة مثل مسعود بن ماساى ، وزير السلطان عبد العزيز الذى فر الى غرناطة والذى قبض عليه ابن الخطيب لهذا الغرض ايضا (2) . كذلك نذكر سليمان بن داود الذى على الرغم من ان سلطان غرناطة قد بايعه على مشيخة الغزاة بالاندلس فان ابن الخطيب عمل على وقف هذا التعيين محتجا بأن تلك الرياسة ... « انما لاعياص الملك من بنى عبد الحق لانهم يعسوب زناتة » (3) .

وبطبيعة الحال كانت النتيجة المباشرة لسياسة التقرب التى سلكتها غرناطة تجاه سلاطين فاس هى ان يزداد نفوذ ابن الخطيب فى البلاط المرينى فيحدثنا ابن خلدون ان سلطان فاس كثيرا ما أطلق سراح بعض المسجونين من جراء تدخل ابن الخطيب او وساطته (4) . هذا فضلا عن ان جميع المعاهدات التى كان يعقدها ابن الخطيب مع قشتالة أو اراجوان ، كانت تعقد باسم ملكى غرناطة وفاس . وهذا دليل على ان السياسة الخارجية لكلا البلدين كانت موحدة .

ثم جاءت المحنة التى كان يتوقعها ابن الخطيب حينما كثرت السعايات ضده . وتلبد الجو بينه وبين سلطانه محمد الخامس ، فنزع عنه ــ كما يقول ابن خلدون ــ الى عبد العزيز سلطان المغرب لما قدم من الوسائل ، ومهد من السوابق ، فقبله السلطان وأحله من مجلسه محل الاصطفاء والقرب وذلك سنة 773 هـ (1371م) (5) .

ويبدو ان ابن الخطيب كان حريصا على ان يحمل معه امواله وذخائره الى المغرب ، وفى هذا يقول له القاضى المالقى ابو الحسن النباهى الجذامى : « فهمزتم ولمزتم وجمعتم من المال ما جمعتم ... ثم هربتم بأثقالكم » (6) . وعلى الرغم من أن قائل هذه العبارة هو احد الذين تنكروا لابن الخطيب ، الا انها تبين على اى حال فكرة الناس عنه .

---

(1) أنظر (ابن خلدون : كتاب العبر ج 7 ص 231 ــ 232 وص 278 ــ 279)
(2) المقرى : أزهار الرياض ج 1 ص 320 .
(3) المقرى : نفح الطيب ج 7 ص 234.
(4) المقرى : أزهار الرياض ج 1 ص 225 .
(5) المقرى : نفح الطيب ج 7 ص 56 .
(6) المقرى : نفح الطيب ج 7 ص 56 .

وقد حاول ابن الخطيب ان يبرر هجرته الى المغرب بأنها لغرض الانقطاع عن الناس والتفرغ للعبادة والفرار الى الله وحده ، غير أن أعماله وأقوال بعض معاصرية امثال ابن خلدون والنباهي، تنكر عليه هذا القول وترميه بان هجرته لم تكن لهذا الهدف الروحي الذى كان اجدر به أن ينشده فى الحرمين الشريفين او فى غرناطة نفسها حيث الرباط والجهاد ، وانما كانت لغرض مصلحى بحت، وهو « الاستكثار من شراء الضياع، والتانق فى بناء المساكن واغتراس الجنان » (1) .

على ان هروب ابن الخطيب الى المغرب لم يوفر له الراحة او السلامة التى كان ينشدها ، اذ استمر اعداؤه يحيكون له الدسائس ، وأخذت سفارات السلطان محمد الخامس ترد تباعا الى البلاط المرينى مطالبة بتسليم ابن الخطيب، رامية اياه بالكفر والالحاد لعبارات وردت له فى كتاب « محبة الله » الذى ألفه فى غرناطة منذ عدة سنين . وقد كان رد السلطان عبد العزيز على هذا الاتهام منطقيا وجميلا اذ سألهم : « ولماذا لم تعاقبوه اذا حينما كان مقيما عندكم ؟ » .

ويجدر بنا ان نشير فى هذا الصدد الى ان المغرب فى عهد ذلك السلطان ابى فارس عبد العزيز ، قد نهض نهضة سياسية عظيمة ، وصار قلبا للعالم الاسلامى الغربى . ففى عهده زالت الحروب والفتن الداخلية ، وضم المغرب الاوسط الى ملكه ، وبهذا صار المغرب وحدة وقوة يخشى خطرها .

زوابع بين المغرب والاندلس

على ان موضع الاهمية هنا هو ان ابن الخطيب الذى كان يلمس قوة المغرب فى عهد صديقه السلطان عبد العزيز ، رأى بعد ان استحكم العداء بينه وبين ملك غرناطة ، ان يسير فى سياسته التقليدية المغربية الى اقصى حدودها خطورة ، الا وهى : تحريض سلطان فاس على الاستيلاء على غرناطة ليصل بذلك الى هدفه الرئيسى وهو القضاء على اعدائه هناك وتأمين حياته ومصالحه بالمغرب

ويبدو ان هذه السياسة صادفت هوى فى نفس السلطان عبد العزيز — لاسيما وقد وحد المغرب — فوعد بتنفيذها . وفى هذا الصدد يقول ابن

---

(1) المقرى : نفح الطيب ج 7 ص 21 و ص 49 الى 59 .

خلدون : « ثم تأكدت العداوة بينه وبين ابن الاحمر ، فرغب السلطان عبد العزيز فى ملك الاندلس وحمله عليه ، وتواعدوا لذلك عند رجوعه من تلمسان الى المغرب » (I) .

ولما علم سلطان غرناطة بهذا الامر ثارت مخاوفه وأسرع فى ارسال التحف والهدايا الى بلاط فاس طمعا فى كسب رضاء هذا السلطان وابعاد شره

ولكن الظروف سرعان ما تغير الاحوال ، اذ يموت السلطان عبد العزيز بعد هذا الوقت بقليل سنة 774 هـ (I372م) ويخلفه على عرش المغرب ابنه ابوزيان محمد السعيد وكان طفلا فى الرابعة من عمره ، فاستبد بالامر وزيره ابو بكر بن غازى وانقلبت الاوضاع السياسية فى المغرب رأسا على عقب .

ورأى ابن الخطيب أمام هذه الظروف المفاجئة ، ان يتقرب الى السلطان الطفل ووزيره ، فألف كتابا مناسبا لهذا الوضع الجديد وهو المعروف باسم « كتاب اعمال الاعمال فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام » .

على ان هذا الوضع السياسى الجديد الذى اقتضى اقامة سلطان طفل على عرش المغرب ، قد اتاح الفرصة لظهور عدد كبير من الامراء الطامعين فى الملك والمعارضين لسياسة الدولة الجديدة . وكانت النتيجة ان دبت الفوضى والحروب الاهلية فى المغرب، واستولى بنو عبد الواد (او بنو حمو او بنو يغمراسن ، او بنوزيان) على تلمسان والمغرب الاوسط ، ففقد المغرب بذلك وحدته وقوته . وهنا يجد السلطان محمد الخامس الفرصة سانحة لتحطيم سياسة ابن الخطيب وابعاد الخطر المرينى عن بلاده . فعمل اولا على تأييد استقلال بنى عبد الواد – اعداء بنى مرين – بتلمسان ، ثم الغى من مملكة غرناطة منصب شيخ الغزاة الذى كان يشغله أحد امراء بنى عبد الحق (او بنى مرين) وتولى هو واولاده قيادة الجنود الغزاة او المتطوعين المغاربة فى غرناطة ، ثم آخذ بعد ذلك يتدخل فى شؤون العدوة المغربية فيبعث ببعض الامراء المرينيين المقيمين عنده الى المغرب ملوحا لهم بالعرش المغربى ومقدما لهم جميع المساعدات الممكنة . وواضح ان هدف السلطان محمد الخامس من وراء ذلك هو اثارة الفتن والقلاقل ضد الوزير المستبد بحكم المغرب ابى بكر بن غازى صديق ابن الخطيب .

(I) ابن خلدون : العبر ج 7 ص 338 و 34I .

وأول أمير أرسله سلطان غرناطة الى المغرب هو الامير عبد الرحمن بن يفلوسن المريني الذى سبق ان سجنه ابن الخطيب فى غرناطة بايعاز من السلطان عبد العزيز كما ذكرنا آنفا . ونزل هذا الامير بساحل بطوية عند مصب وادى ملوية بنواحى مليلية واتخذ من الجبال هناك قاعدة عسكرية لقواته واعلن عن مطالبته بعرش المغرب . وفى نفس الوقت اتجه السلطان محمد الخامس بجيوشه الى جبل طارق – وكان تابعا لبنى مرين فى ذلك الوقت – فشدد الحصار حوله وحشد جيوشه على السواحل الاندلسية الجنوبية مظهرا العبور الى المغرب .

وأمام هذا الخطر المزدوج رأى الوزير ابن غازى ان يعمل على حماية مدينة سبتة من أى هجوم يقع عليها من الاندلس ، فأرسل ابن أخيه محمد بن عثمان على رأس جيش كبير لحماية هذه المدينة وما حولها من قواعد عسكرية بما فى ذلك جبل طارق ، بينما اتجه هو الى محاربة المطالب بعرش المغرب الامير عبد الرحمن بن يفلوسن .

ورأى السلطان محمد الخامس ان يلجأ الى سياسة الحيلة والدهاء لتنفيذ اغراضه فاتصل من جنوب الاندلس بحاكم سبتة الجديد محمد بن عثمان ، واستطاع اقناعه بأن من الخير للمغرب واهله أن يكون سلطانه رجلا راشدا بدلا من هذا الطفل الذى لا يدرك شيئا، واتفق معه على اقامة الامير المرينى ابى العباس أحمد بن أبى سالم سلطانا على المغرب ، على أن يكون هو (اى محمد بن عثمان) وزيره فى المستقبل، ووعده بكل المساعدات المادية والعسكرية لتنفيذ هذه الخطة . وفى مقابل ذلك اشترط محمد الخامس على محمد بن عثمان تسليمه ثلاثة أشياء :

(1) جبل طارق .
(2) لسان الدين ابن الخطيب .
(3) الامراء المرينيين .

وتنفيذا لهذه الاتفاقية سلمت قاعدة جبل طارق الى سلطان غرناطة الذى أرسل بدوره جيشا غرناطيا صحبة الامير أبى العباس ووزيره محمد بن عثمان لاحتلال عاصمة المغرب فاس .

وعلم الوزير ابو بكر بن غازى بخيانة ابن أخيه محمد بن عثمان ، فأسرع لملاقاته ومنعه من دخول فاس ولكنه هزم عند جبل زرهون سنة 776 هـ (1374 م) .

وهكذا اصبح المغرب تحت رحمة الاميرين المرشحين لعرش المغرب : أبى العباس أحمد ، وعبد الرحمن بن يفلوسن وهما من أحفاد السلطان ابى الحسن المرينى . وبطبيعة الحال قام نزاع بين هذين الاميرين حول مدى أحقية كل منهما فى عرش المغرب ، واضطر سلطان غرناطة الى التدخل بينهما لتسوية هذ النزاع فطلب من عبد الرحمن الخضوع لابى العباس ومساعدته فى احتلال فاس على ان يستقل هو بحكم عاصمة المغرب الثانية مراكش .

وهكذا صار السلطان محمد الخامس هو الحاكم الحقيقى للمغرب يولى ويعزل من يراه من امراء بنى مرين . وكان طبيعيا ان يكون نتيجة هذا التدخل هو القبض على غريمه لسان الدين ابن الخطيب وقتله وحرقه ، بعد امتحانه وتعذيبه ، ومصادرة امواله ، وضياعه بالمغرب وذلك سنة 776 هـ (1374 م) (1) .

من كل ما تقدم نرى ان لسان الدين ابن الخطيب كانت له حياة مغربية حافلة اثرت فى سياسته كوزير وفى انتاجه العلمى كعالم واديب ومؤرخ .

الدكتور احمد مختار العبادى

---

(1) المقرى : نفح الطيب ج 7 ص 25.

الفنّ المغربي قبل التّاريخ

بقلم : عبد العزيز بنعبد الله
استاذ محاضر فى التاريخ والفن بكلية الآداب

لقد اضطر الانسان في عصور ما قبل التاريخ الى الالتجاء للكهوف المنحوتة في صخور الجبال ، وما زلنا نشاهد الى الآن فيمنحدرات الاطلس ، بعض المغاور العتيقة المتهدمة · وقد كانت هذه المآوى الطبيعية مركز حياة نشيطة كما تشهد بذلك بقايا الادوات الغريبة وعظام الانسان والحيوان ، الذين عاشا فى هذه الكهوف ، والذين القت تلك المكتشفات ضوءا على اساليب عيشهما .

لقد اختار الانسان الاول ـ كفالة لامنه وطمانينته ـ هذه المخابىء السامقة فى قمم الجبال ، فرارا من الضوارى المفترسة · وتوجد الى الآن فى هضاب تادلة كهوف تحتوى على غرف منحوتة فى الحجر الصلد ينفذ اليها النور من خلال كوات واسعة غير ان الاوانى والآلات التى عثر عليها تختلف اشد الاختلاف عن الأثاث البربرى الحالى ، ولكن تنم عن شعور فنى يزداد وضوحا فى الصور المنقوشة على الصخور .

الفن فى مرحلته الطبيعية

ومن ابرز هذه الرسوم (كبش زناكة)(Béller de Znaga) المكتشف فى فكيك ، والذى يعطينا صورة عن الفن المغربى قبل التاريخ فى مرحلته الطبيعية (اى تصوير المناظر الطبيعية) التى عقبتها مراحل ادت الى ما نشاهده اليوم

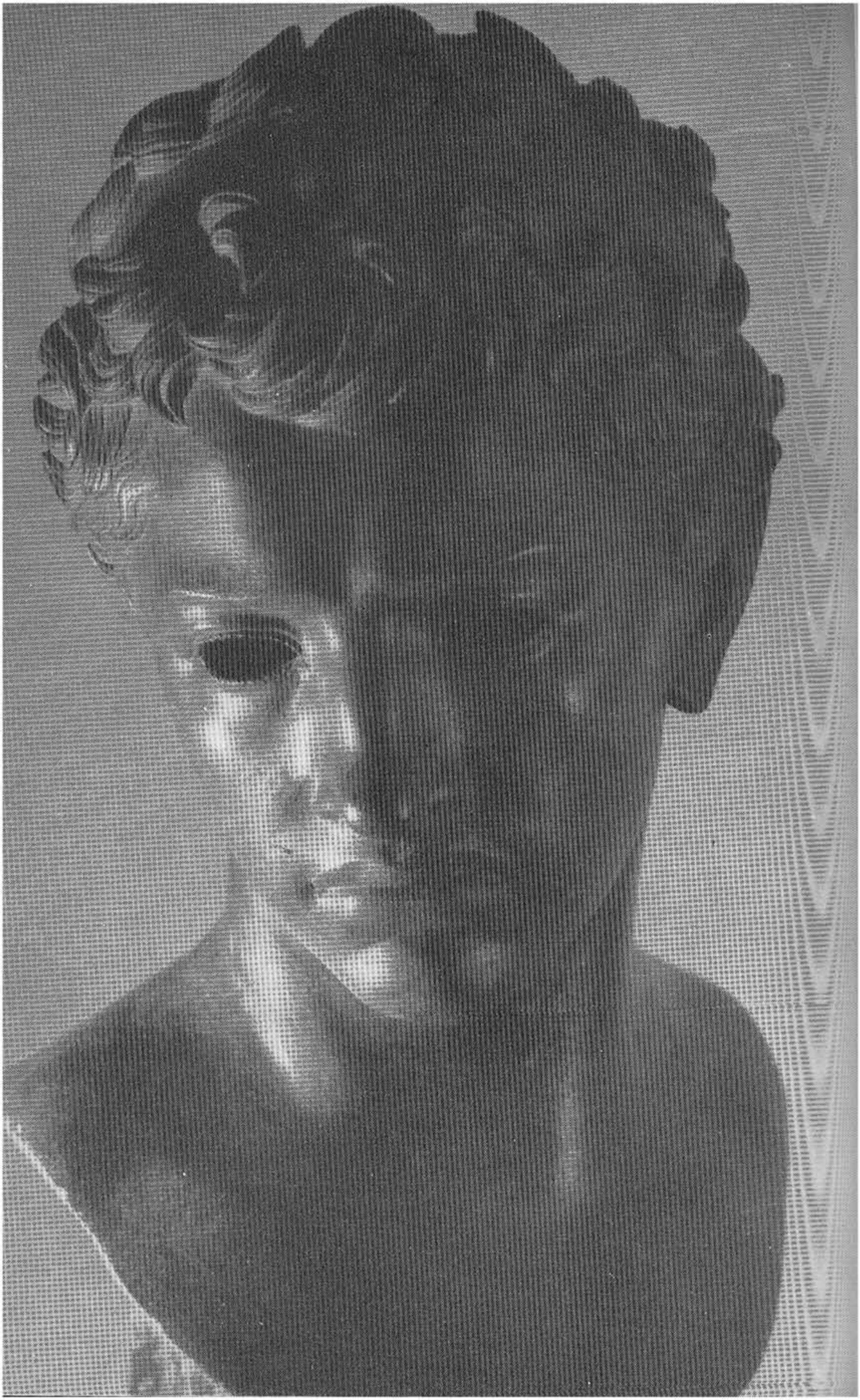

قصر فرعون : صورة يوبا الثانى من البرونز وهو ملك موريطانيــا (مقاطعة فى افريقيا الشمالية قسمها الرومان الى موريطانيــا الطنجية وموريطانيــا القيصرية موزعة بين تونس والجزائر والمغرب) توفى عـام 18 م. وهو كاتب له مصنفات فى التاريخ باللغة الاغريقية

من نقوش حيوانية فى الهندسة المعمارية البربرية . وتوجد ثلاثة آلاف وخمسمائة صورة منحوتة على الصخر فىالاطلس الكبير· ومما يساعد على تحديد تاريخ نحتها وجود صور لحراب ورماح ـ من النوع المعروف فى عصر البرونز الثانى باوربا ـ كاسبانيا والبرتغال وبروطانيا وايرلندا وايكوسيا ، وهى قريبة الشبه بأسلحة جنوب شرق اسبانيا ، وبذلك يمكن ضبط تاريخها بالنصف الثانى من الالف الثانية ، وتوجد منها نحو الثلاثين فى جبل اوكايميدن وياكور .

ومن بين الصور الانسانية المكتشفة فى الاطلس الكبير توجد اربع تلفت النظر ، احدها شخص مسلح بخنجر ويحمل أربعة اسورة على الاقل علاوة على نحو 14 الى 17 من السمات البارزة الواضحة منها اربع حول العنق واربع على الصدر · والشخص الثانى بقبعته وحذائه وهراوة فى اليد اليمنى وخنجرين فى العضد الايسر. اما الرجل الثالث قسماته غامضة ويظهر ان عصى ماثلة الاثر فوق رأسه · وما زالت معالم الرجل الرابع بارزة ، منها ذكره وحربته وخنجر فوق رأسه ويلاحظ ان الشخصين الاول والثالث يوجدان فى اوكايمدن والآخرين في ياكور (عزيب نكيس وفيف كاكين) ويتأكد ان اثنين منهم من المحاربين ·

مع التطور الحضارى

ولكن منذ هذا العصر بدأ البرابرة يتجمعون فى دساكر ، فى شكل خيام واخصاص . شاهد منها الرومانيون المآت عندما دخلوا الى المغرب فاطلقوا عليها اسم (كاسطيلا) (Castella) اما المدن فانها لم تظهر الا مع دخول الفنيقيين ·

الا أنه لا يمكن ان نحدد بوضوح الفترة الانتقالية بين عصر الكهوف وبين العهد الذى اضطر فيه الرعاة الرحالون الى اتخاذ خيام ينقلونها على ظهر عربات خشبية لانتجاع الكلأ فى الجهات الخصبة ·

هياكل الانسان

وقد اسفرت الحفريات عن نتائج القت بعض الضوء على عدة عناصر كانت غامضة فى هذه المرحلة من تاريخ المغرب · ففى عام 1933 عثر احد حراس مصلحة الآثار القديمة بالرباط على جزء من فك اسفل بشرى · وفى عام 1936 عثر فى منجم القبيبات بالرباط على بقايا انسان قديم · وهذا المنجم عبارة عن

نجد رملي تستخلص منه الاحجار المنجورة ، وهو واقع بين طبقتين اثنتين من العصر الجيولوجي الرابع القديم . الا ان دراسة بعض أجزاء هذا الهيكل كادت تسفر عن كون انسان الدار البيضاء يمكن أن يكون أقدم منه ·

ويستفاد من الحفريات الممارسة بالرباط ان مصب وادى ابي رقراق كان يصل الى نقطة جنوبية ابعد من مسيله الحالى ·

اما اجزاء الهيكل الرباطى فانها تدل على مناعة جسمانية ودراسة عناصر الفك الاسفل تبرز خصائص عادة في الانسان الحالى ولكن شبيهة بخصائص المكتشف في نياندير طال (Neandertal) (I) قرب نهر الراين بالمانيا. وتلاحظ نفس الخصائص في الهيكل الموجود في تمارة وسيدى عبد الرحمان . اما الاسنان فانها تثير الانتباه بضخامتها التى تتجاوز ضخامة اسنان الاسنان الاوربى اليوم ويمتاز انسان الرباط بوجود نتوء بارز في اضراسه السفلى ومجموع مقاطعه ولم يلاحظ ذلك حتى لدى انسان (النياندير طال)

وهكذا فان انسان الرباط يعتبر من هذه الحيثيات اقدم هيكل في المغرب، لان الهياكل الموجودة في تمارة وسيدى عبد الرحمان وطنجة اكثر تطورا منه وهذه الخاصية تضفي عليه طابعا استثنائيا في ميدان تحديد الفوج الاول من سكان البشر بالمغرب ·

وقد اسفرت التنقيبات كذلك عن وجود هياكل فيلة قديمة بافريقيا الشمالية · وقد اسفر البحث عام 1952 عن كشف بقايا فيل قرب الدار البيضاء. وتشبه اضراس هذا الفيل اضراس الفيل المكتشف في سيدى عبد الرحمان وقسنطينة مما يدل على ان الشكل واحد في جميع هذه المناطق ويدل ايضا على ان الفيل الاطلنطيقى هو كقريبة الفيل الافريقى من الانواع التى تعيش في البطاح والسباسب .

(I) عرف التاريخ القديم اربعة اجناس للانسان :

اولا – الجنس الذى عاش بافريقيا الوسطى قبل المسيح بـ 000 600 سنة وعثر على اثار هذا الجنس عام 1925 بافريقيا الوسطى .

ثانيا – الجنس الذى عاش قبل المسيح بـ 000 300 سنة وعثر الاستاذ دوبوا على اثاره بجزيرة جاوة سنة 1892 ·

ثالثا – الجنس النياندرطال الذى عاش قبل المسيح بـ 000 100 سنة وعثر الاستاذ فوبروط على اثاره بمدينة دوسالدورف بالمانيا ·

رابعا – الجنس الهوموسابيان الذى عاش قبل المسيح بـ 000 40 سنة عثر على اثاره سنة 1686 بفرنسا ·

قصر فرعون : الدار ذات السواري

آثــار صنــاعيــة

أما في الميدان الصناعي فمنذ سنة 1949 اثار علماء الآثار الانتباه الى امكان وجود صنائع قديمة جدا بافريقيا الشمالية ، وقد عثر بالمغرب على عدة ادوات تؤكد هذه النظرية ، ففي احد مناجم الدار البيضاء وقــع الكشف عــن حصيات ذات بريق تناوبي قديمة العهد · وعثر منذ عام 1941 عــلى حصيــات شبيهة بهذه في منجم سيدى عبد الرحمان قرب آنفا · وترجع الى نفس العهد التاريخي المخلفات الحجرية الموجودة في سوق الاربعاء وعرباوة وغابة المعمورة (نوع احمر اللون) واحواز الرباط (مجموعة من الحصيات المنجورة) قرب دوار الــــدوم ·

ومهما يكن تنوع مناطق هذه المناجم فانها تعتبر أقدم صناعة معــروفة بالمغرب وان وجود الآت مختصة بين هذه المصنوعات يبشر بامكــان الكشف عن بقايا مصنوعات أعرق فــي القــدم ·

وعثر كذلك على مناجم في نجود مدينة سلا ، استخلصت منهــا صخور ضخمة (متران الى ثلاثة امتار) · ويوجد نفس النوع في شالة ومطار الرباط مع تنوع اكثر في اطوال القطع واختلاف المواد الاولية · اما فــي العصــور التاريخية فان البرابرة اقاموا لحفظ ثرواتهم نوعا من «القصور» او الحصون اسندوا حراستها لرجال مسلحين ، واحيانا ابراجا على قمم الجبــال لايــداع العتاد والمال والمؤن وكانوا يلبسون اول الامر مخيطات بسيطة تستر العورة ثم جلود الحيوان تقيه من البرد القارس ، ثم الجبة الصوفيــة ثم اكسية اشبه بالبرانس مع تزيين رؤوسهم احيانا باكاليل من الريش .

والسلاح كان يصنع من الحجارة في العهد الحجرى الذى امتد طويــلا في القارة الافريقية حيث لم يعرف الناس منذ العصور الاولى معادن الحديــد والبرونز — والنحاس — ثم استعمل البربر الحراب فالاقواس فالخناجر وكانت درقات الدفاع تصنع من جلد الفيلة · وهذه الاسلحة وكذلك الآلات الاخرى كانت تنقش اولا بالاظافر ، ثم بأسنة حجرية ، ثــم اسنة متخذة مــن اطراف العظام المحددة وتطور صنع الاسنة الى نوع اشبه باسنان المناشير.

وكان البرابرة بالاضافة الى مايصنعونه من انواع المجوهرات يرسمون على الحجارة صورة تمثل حياتهم اليومية ، ويتحلون نساء ورجالا بالاســورة والعقود ، وينفرد الذكور بالاقراط ، والنساء بالخلاخل · وكانت الاواني كلها

خزفية . والمرأة فنانة تتولى نقش مختلف الاوعية كما تتكفل بنسج الزرابي. وكان الموتى يدفنون في مغاور طبيعية ، ثم صاروا يوضعون في كهوف مربعة او مستطيلة تنحت في الجبال وتحشر فيها جثث متعددة ، بعد ثنيها وكسر عظامها ٠ ولكن منذ القرن الثالث الميلادي صار بعض المغاربة يحرقون موتاهم كاليونانيين والقرطاجنيين ، كما تعودوا صبغ الموتى وايداع الحلي والاثاث مع مالكها في مرقده الاخير ٠ وتعتبر ناحية تافيلالت من بين النواحي الغنية بالمقابر التي يرجع تاريخها الى ما قبل الاسلام ، فقد عثر عام 1938 على ما سمي بمقبرة ارفود الواقعة على الضفة اليسرى (لوادي زيز) حيث وقع العثور على نحو 1200 حجرة لتبليط الاضرحة ، وقد تم الكشف في اثنتين منها عن عظام بشرية ما زال من السهل التعرف الى هويتها ٠

وكان الفن البربري يستمد من الاشكال الهندسية ـ زيادة على بعض الرسوم الطبيعية ـ ولكن قلما كان يستعمل الاقواس والحنايا وانما هما خطوط وتهاريج..

واروع ما في هذا الفن حيويته واصالته مما ساعده على الصمود في وجه تاثيرات الرومان والاسبان، واقل ما يمكن ان نستخلصه من هذا هو ان وفرة الاثاث والاسلحة لدى المغاربة منذ عصور ما قبل التاريخ تنم عن تدفق حياة اجتماعية لا بأس بها ٠

بعد الفنيقيين ثم الرومان

أما في العصور التالية فقد اسس الفينيقيون قرطاجنة بافريقية اواخر القرن التاسع قبل الميلاد وفي منتصف القرن الخامس اجتاز هانون بدوافع تجارية اعمدة هرقل (مضيق جبل طارق) على ظهر ستين مركبا واقام على طول سواحل المغرب سبعة مراكز، احدها في مصب الساقية الحمراء. ولعل هذه الاقامة ـ القرطاجنية العابرة تركت آثارها ، اذا اعتبرنا بعض المظاهر المشتركة في الحضارتين البونيقية والمغربية . فالطابع القرطاجني ما زال يسم صناعة المعادن والجلد والخزف المذهب والاصباغ والنسج والالآت الفلاحية والبحرية ٠ ويرى المؤرخ كوتي ان الثياب البونيقية كانت شرقية بقميصها الطويل ذي الاكمام العريضة وطربوشها وكساء السفر الذي يشبه الكندوره (الفوقية الفاسية) بل وحتى البرنس الحالي (1) والاعراف

---

(1) تاريخ افريقيا الشمالية ص 92

رسوم وصور منحوتـة في صخور جبـل اوكايـدمدن يرجـع تاريخهـا الى العهد البربرى

القرطاجنية نفسها كانت شرقيـة . فمن ذلك تعدد الزوجـات وانواع الحلى النسوى وشكلية الاجداث والشواهد وحركة السجود وتحظير اكل الخنزير والخمسة (اواليد) ... الخ وقد تساءل المؤرخ كزيل : هل استمرار معالم الحضارة البونيقية بالمغرب هو الذى ساعد على انتشار اللغة العربية الغريبة من البونيقية بين البربر مؤكدا ان قرطاجنة قد هيأتهم مـن بعيد الى تقبـل القرآن ككتاب مقدس وكدستـور ..

وقد خلفت قرطاجنة هذه حاضرة روما التى بسطت سيطرتها على افريقيا طوال سبعة قرون (من القرن الثانى قبل الميلاد الى القرن الخامس بعـد ازدياد المسيح) .

وقد كان اقليم النفوذ الرومانى فيموريطانيا الطنجية (ابتداء من عام 42) يشكل قطعة صغيرة تمر حدودها جنوبى الرباط من المحيط الاطلنطيقى الى ملتقى وادى ابى اقزاق وعكراش اما فى شرق المغرب فان الآثار الباقيةتحمل على الظن بان هذه الحدود امتدت الى الاطلس الاوسط جنوبى مكناس وفاس وبذلك تكون منطقة الاحتلال الرومانية عبارة عن مثلث بين سبتة والربـاط وفاس تندرج فيه طنجة كعاصمة بعد قصر فرعون (وليلى)

والغالب ان طنجة كانت اعظم مدينة فى الجزء المغربى المحتل من طرف الرومان وما زالت المدينة تحتفظ ــ كشاهد على الاستيطان الرومانى ــ بانقاض كنيسة لم يبق منها سوى تصميمها اما الآثار الاخرى المحفوظة فانها لاتعد بعض الكتابات والنقود والمنتجات الفنية مع تمثال امرأة .

. آثـار وليلـى

وقصر فرعون عبارة عن مدينة مستطيلة الشكل ولكن غير منتظمـة المساحة (يتراوح طولها وعرضها بين 700 متر الى ما بين 300 و 500 متر) تتدرج بناياتها في سفح جبل زرهـون حيث ضريح المـولى ادريس الاول . ونظرا لانعدام وثائق تكشف عن وضع هذه المدينة التاريخية، فان مصلحة الآثار القديمة تعمل على تجديد معالم هذه المدينـة التى هى اعظـم حاضرة رومانية فى الاقليم الداخلي بفضل الحفريات التى كشفت عن قوس كاراكالا (1) او قوس النصر وعن ازقة ودور ومعاصر للزيتون . وقـد عثر عـلى

(1) امبراطور رومانى نجل سبتيم سيفير (Septime) ولد فى اليون عام 188م وتولى الملك بين 211 و 217 م . (Sévère)

الساحة المركزية للمدينة بكنيستها ، وازيحت الانقاض عن بدائع فنيةرائعة منها كلب من البرونز (وهي قطعة مقتبسة عن الاصل اليوناني المنحوت في القرن الخامس قبل الميلاد) ورأس مصنوع من المرمر ونقوش بديعة تمثل صورا حيوانية وانسانية في قالب فسيفساء . وكانت الساحة الداخلية المحاطة بالاروقة هي القلب النابض للحياة العمومية في المدينة ، ويقوم في جانبها الغربي حي لا شك انه امتداد لدسكرة اهلية ، كما توجد شرقي قوس النصر شبكة واسعة من الدور الثرية بقاعات استقبالها الواسعة وباحاتها المحاطة بالغرف على النمط المغربي . وقد عثر على بقايا قنوات كانت تحمل المياه من زرهون الى سقايات المدينة وحماماتها او الاحواض المنبثقة داخل المنازل اما الزخرف داخل البيوت فان نقوشه تشكل احيانا دوائر ناتئة رائعة او نحوتا مفرغة علاوة على الرسوم الزهرية في الحجارة والتسطيرات الهندسية ذات الطابع البربري ورؤوس الاساطين البسيطة والمزخرفة بصور نورية عريضة الاوراق جميلة التقاسيم وتماثيل ودمى واثاث من البرونز تشكل مجموعة فنية ثرية نادرة المثال .

مدن اثرية

وتوجد انقاض مدينة باناسة (Banassa) الرومانية على الضفة الجنوبية لنهر سبو ، وهي تحتوي ايضا على ساحة مركزية ودور كبرى جميلة ومستحمات تتجلى روعة مبانيها الاصلية في قطع البرونز الفنية التي عثر عليها .

اما تاموسيدة (Thamusida) الواقعة كذلك على نهر سبو على بعد ستة عشر كلمتر من القنيطرة ، فان بقاياها المعمارية اقل روعة وجمالا من بناسة وقد تم الكشف في شالة عن قسم من الساحة المركزية (Forum) التى تنتهي غربا بقوس نصر وبقلعة رومانية وعمارتين جنوبا وشمالا . كما كشف في الجنوب الشرقي للساحة عن آثار دور رومانية وعن مقبرة في المكان الذي يقوم عليه مقر السفارةالفرنسية الان. ولم يعثر على حمامات ولا على اشياء فنية باستثناء كتابات جميلة تلقي بعض الضوء على الحياة الرومانية في هذه المدينة العتيقة الا ان الحفريات الاخيرة ازاحت التراب في السنة الفارطة عن ثلاثة من التماثيل ما زالت تحت الدرس .

ومن المدن الاثرية الهامة ليكسوس الواقعة على مسافة اربعة كلم شمالي

منظر من ءاثار لوكسوس وهى اول مدينة بناها القرطاجنيون بالمغرب منذ
ثلاثة آلاف عام

مظهر من بقايا ءاثار شالة

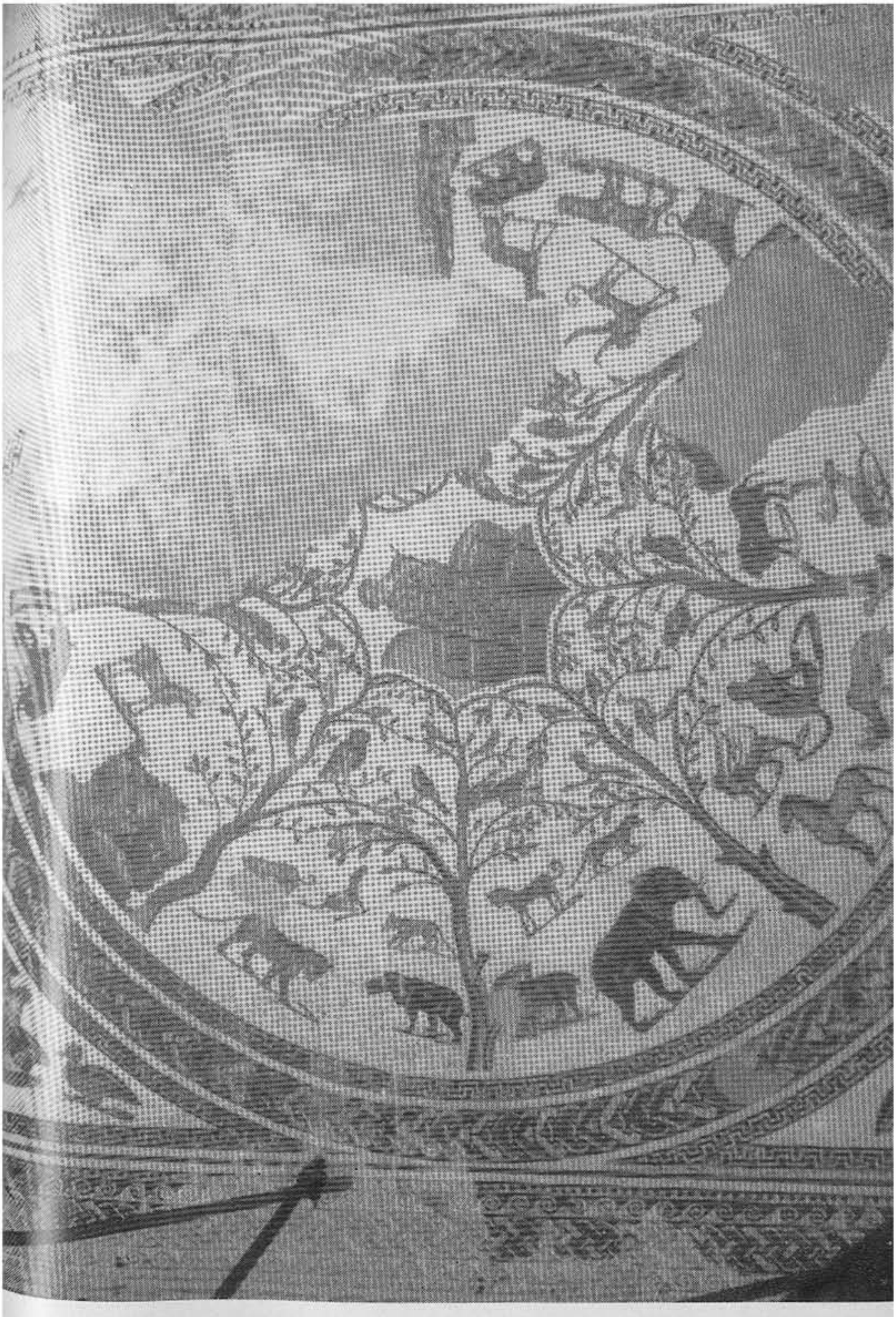

قصر وليلي : نموذج من رسوم الفسيفساء الرومانية

العرائش ، وعلى الضفة اليمنى لنهر لوكوس وهي فنيقية الاصل (القرن السادس قبل الميلاد) احتلها الرومان واقاموا بالقرب منها ضريح هرقل . وهي معروفة عند المؤرخين بمدينة الشمس او « تشمس » التي يقال بأن حدائق هيسبير يدس ذات الفواكه الذهبية موجودة بها على خلاف ما يراه آخرون من وجودها في الجزر الخالدات وهي الجزر السعيدة السبع التي اكتشفها الاسبان في القرن الخامس عشر . ويرى علماء الاثار ان هذه المدينة تحتوى على كنوز فنية لاتقدر . لذلك تولى وزارة التربية الوطنية هذه الحاضرة الازلية عناية خاصة الآن . وقد عثر عي البناء الفينيقي في الطبقة السفلي على عمق بضعة امتار وفوقه البناء الروماني على طبقتين اعلاها المدينة الامبراطورية ، ثم طبقة اخيرة يظهر انها راجعة لصدر الاسلام نظرا للعثور فيها على قطع خزفية عربية ملونة ومنقوشة بحروف كوفية علاوة على بقايا مسجد بمحرابه وفنائه اما النماذج الاثرية القديمة فهي اوان من الفخار تطور صنعها فدهنت ايام الفينيقيين باللون الاحمر ، وكذلك قنادل منوعة كما عثر على بقايا دور بونيقية مبنية من الحجارة تحتوى على غرف مستطيلة كالغرف المغربية الحالية وارضها مبلطة بالفسيفساء المرمرى . وهذه المدينة التي تنقسم الى عدة احياء كل حي بسوره الخاص تعتبر (هي ومدينة شالة) الوحيدتين الواقعتين في مركز بحرى هام وكانت مستودعاتها الغنية تستعمل لحفظ الحبوب والزيوت .

وقد عثر على مدن ازلية اخرى مكان سبتة والقصر الكبير (اوبيدوم نوفوم) وتمودة (على بعد ستة كلم ونصف من تطوان) واصيلا وفريداى (على مسافة كيلومترين اثنين من عرباوة) وتريمولى (في المكان الذى كانت تقوم البصرة في القرن الرابع الهجرى) .

وقد لاحظ تيسو (1) ان مدينة القصر الكبير مبنية في معظمها بادوات ازلية العهد وتوجد على احدى قواعد منارة الجامع الكبير كتابة اكتشفت منذ عام 1871 م وهي تشهد بوجود ضريح في ذلك المكان .

وقد ظلت اهم هذه المدن قائمة الذات في القرن الخامس الميلادى بعد انسحاب الرومان وكان بعضها يمثل في القرن الرابع ابرز حواضر المغرب الاسلامي (2) .

---

(1) كتاب الجغرافية المقارنة لموريطانيا الطنجية ص 162

(2) تاريخ المغرب ـ طيراس ج 1 ص 61 ـ البيان المغرب ج1 ص 133 و 330

أصول الحكم فى الاسلام

للاستاذ علال الفاسى
وزير الدولة المكلف بالشؤون الاسلامية

مقدمة

قبل ان نتكلم عن طبيعة الحكومة الاسلامية وعن اصول الحكم فى الاسلام يجب ان نذكر باشكال الحكومات المعروفة فى هاذا العصر لنرى مركزها من الحكم الاسلامى ·

فالحكومات اليوم اما ملكية ، واما جمهورية .

والجمهورية اما رآسية وهى التى يقوم رئيس الدولة فيها الى جانب اختصاصاته باختصاصات رئيس الحكومة ، ويصبح مسؤولا اما مباشرة امام الشعب او امام المجلسين الذين ينتخبهما الشعب لمدة معينة ·

وينتخب عادة رئيس الجمهورية الشعب كله من بين المواطنين ، وتارة يقوم اعضاء المجلسين المنتخبين المجتمعين فى مؤتمر وطنى بانتخاب رئيس الجمهورية من بين الاعضاء او من غيرهم من المواطنين .

ويكون انتخاب الرئيس لمدة معينة يمثل فيها الجمهورية وينفذ القوانين ويسير دفة الحكم مستعينا بوزرائه .

واما ان تكون الجمهورية برلمانية وهى التى يحكم فيها رئيس الجمهورية بوساطة مجلس وزراء ، يختارهم رئيس مجلس الوزراء المعين من قبله ، ويكونون مسؤولين مباشرة امامه او امام البرلمان ، ويكون التشريع فى مثل

هذه الحالة للبرلمان وحده او بالاشتراك مع رئيس الجمهورية ، وذلك معنى الفصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية .

وتتنوع اشكال الجمهوريات بحسب درجة الديموقراطية المحققة في بلد ما وبحسب المذهب الذى تنتحله .

ولا يلزم من وجود الجمهورية قيام نظام ديموقراطى في الدولة ، فهناك جمهوريات يتحقق فيها الاستبداد بكل معنى الكلمة .

والحكومات الملكية اما مطلقة او مقيدة .

فالمطلقة هي التى يتولى الحكم فيها الملك مدة حياته ممارسا وحده للسلطتين التشريعية والتنفيذية ، دون ان تكون عنده حكومة او يكون مقيدا بقانون دينى او مدنى . ولاكنه مع ذلك يكون مسؤولا مباشرة امام الشعب .

والملكية المقيدة ، هى التى يخضع الملك فيها لقوانين اساسية مكتوبة او عرفية ، ويتجلى شكلها العصرى اليوم فى نظام الملكية الدستورية التى يشرك الملك فيها امته فى الحكم اشراكا حقيقيا ، وتكون ممارسة السلطة من الجميع بناء على مقتضيات الدستور او القانون الاساسى ، وتكون الرقابة الشعبية محققة فى مجلس او مجلس ينتخبهما الشعب طبقا لقانون الانتخاب . بينما يعين الملك وزراءه محددا مسؤوليتهم الجماعية ومسؤولية كل فرد منهم امامه وامام المجلس النيابى .

وتشترك الامة مع الملك فى صيانة النظام الاساسى وحماية المقدسات وامن الدولة .

واذا كانت الحكومة تسير فى تشريعاتها دون مراعاة لعقيدة اساسية فهى الحكومة الدستورية المطلقة ، اما اذا كانت تخضع فى توجيهها لعقيدة ولدين ، فهى الحكومة الدستورية المقيدة .

ووجود نظام كهنوتي في البلدان الغربية ، والخلاف الذى نشأ بسبب حركة الاصلاح الدينى بين الكاثوليكيين والبروتستانتيين فى المانيا وسويسرا وبريطانيا هو الذى ادى الى قيام حركة تعمل للادينية الدولة ، اى حيادها بالنسبة لمختلف المعتقدات الموجودة فى بلادها ، مع ضمان حرية ممارسة الشعائر الدينية للجميع ، وقد تزعمت فرنسا هاذه الطريقة ، ولم يشايعها احد من الدول الديموقراطية التى قررت اعتبار احدى الديانات دينا رسميا للدولة .

اما الجمهوريات الاشتراكية فانها تقرر الحياد الدينى ولاكنها تفرض (حزبية) الدولة فتحل عقيدة الحزب مكان عقيدة الكنيسة .

وطبيعى ان الاسلام دين بمعزل عن كل سلطة كهنوتية ، ولذالك فمن الخطأ تبنى بعض الدول الاسلامية فكرة تدين الدولة او عدم تدينها ، بل ان وضع القضية فى العالم الاسلامى على الصبغة التى توضع عليه فى اوربا خطا فى نفطة البداية ، وانما يجب وضعها على اساس الواقع الشعبى ، لان الامة اما ان تكون متمسكة بعقيدة ما ، فان نوابها سيراعونها لا محالة لانهم اختيروا على اساسها . واما ان تكون غير متمسكة بعقيدة ما ، وحينئذ فان النواب سيكونون مطلقي الحق في تفكيرهم التشريعى

الحكم الاسلامى

وبعد هذا العرض المجمل لانظمة الحكم فى العصر الحاضر يجب ان نتساءل ما هو مركز الحكم الإسلامى منها ، وما هى طبيعته واصوله .

وللجواب على ذالك يجب ان نفرق بين العهد الذى كان فيه النبى صلى الله عليه وسلم حيا ، وبين عهد الخلفاء من بعده .

فعهد الرسول كان مبنيا على اساس رسالة النبى ، وكان عليه السلام معتبرا في نظر المسلمين وغيرهم رئيس الامة الاسلامية ، والمدبر لشؤونها والقاضى والمشرع فيما يعرض لها من الامور ، كما كان يعتبر فى الوقت نفسه الرسول الذى يبلغ عن الله ما امره بتبليغه من عقيدة وشريعة ومنهاج .

ومع انه عليه السلام بحكم رسالته ، وبحكم مرحلة التاسيس التى قام فيها امتثالا لامر الله بتاسيس الدين الاسلامى والدولة الاسلامية فقد كانت حكومته عليه السلام طيلة حياته دستورية مقيدة ، لانه عليه السلام كان يستشير امته فى سائر امور الدنيا ، وحتى فى بعض امور الدين التى لم ينزل فيها تشريع من السماء .

وكان عمله ذالك اتباعا للامر الربانى النازل عليه فى قوله تعالى : (وشاورهم فى الامر ، فاذا عزمت فتوكل على الله) .

وقد وصف القرءان المجتمع الاسلامى كما طبعه عليه السلام فقال : (وامرهم شورى بينهم) .

ومما استشار فيه النبي (ص) اصحابه فداء الاسارى في غزوة بدر . وقضية الاذان ، ورجع الى رأى اصحابه في غراسة النخل وتلقيحها كما هو معروف في كتب الحديث والسيرة .

وتتجلى شورية الحكم الاسلامي في عهده عليه السلام في الميثاق النبوي الذي امن فيه المهاجرين والانصار وسكان المدينة وقبائلها على اختلاف اصولهم ودياناتهم ، حين وصولهم للمدينة المنورة . فهذا الميثاق يبين بوضوح الاسس الذي قامت عليها الامة المحمدية وحكومتها .

ومع ان هذا العهد النبوي من أقدم الوثائق التي حفظتها لنا كتب السير ومن اول ما دون من الاحكام الشرعية وأخطرها قيمة . فقد اغفله المتكلمون عن اصول الحكم الاسلامي وعن طبيعة السيادة والسلطة وحقيقة الامة في الاسلام ، ولذلك ارى من الواجب ان اودعه في هذا البحث معقبا على مواده بالتوضيح وبعض الشرح الضروري ، احياء لعهد نبوي عظيم وتذكيرا للمسلمين بالدستور الاسلامي الاول الذي يبين لهم الطريقة التي سلكها رسول الله لبناء الامة الاسلامية وكيانها السياسي والاجتماعي

نص الدستور المدني

او العهد النبوي

بسم الله الرحمان الرحيم

مادة 1 هذا كتاب من محمد النبي (رسول الله) بين المومنين والمسلمين من قريش و « اهل » يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم .

2 انهم أمة واحدة من دون الناس

3 المهاجرون من قريش على ربعهم ، يتعاقلون بينهم ، وهم يمدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المومنين .

4 وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلتهم الاولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المومنين .

5 وبنو الحارث (من الخزرج) على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الاولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المومنين .

6 وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الاولى وكل طائفه تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المومنين ٠

7 وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الاولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المومنين ٠

8 وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الاولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المومنين ٠

9 وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الاولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المومنين ٠

10 وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الاولى، وكل طائفة يفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المومنين

11 وبنو الاوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الاولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المومنين ٠

12 ـ وان المومنين لا يتركون مفرحا بينهم ان يعطوه بالمعروف فى فداء و عقل

12 م ـ وان لا يخالف (يحالف ؟) مومن مولى مومن دونه ٠

13 ـ وان المومنين المتقين (ايديهم) على (كل) من بغى منهم او ابتغى وتبيعة ظلم او اثما او عدوانا او فسادا بين المومنين وان ايديهم عليهم جميعا ولو كان ولد احدهم .

14 ـ ولا يقتل مومن مومنا في كافر ، ولا ينصر كافرا على مومن .

15 ـ وان ذمة الله واحدة ، يجير عليهم ادناهم ، وان المومنين بعضهم موالى بعض دون الناس .

16 ـ وانه من تبعنا من يهود فان له النصر والاسوة غير مظلومين ولامتناصر عليهم ٠

17 ـ وان سلم المومنين واحدة ، لايسالم مومن دون مومن فى قتال فى سبيل الله الا على سواء وعدل بينهم .

18 ـ وان كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا .

19 ـ وان المومنين ينبىء بعضهم عن بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله

20 ـ وان المومنين المتقين على أحسن هدى واقومه .

20 م ـ وانه لا يجير مشرك مـالا لقريش ولا نفسا ولا يحول دونـه علـى مـومـن .

21 ـ وانه من اعتبط مومنا قتـلا عن بينة فانه قود به الا ان يرضى ولى المقتول «بالعقل» وان المومنين عليه كافة ، ولا يحل لهم الا قيام عليه .

22 ـ ولا يحل لمومن اقر بهذه الصحيفة وءامن بالله واليوم الاخر ان ينصر محدثا او يؤويـه ، وانه من نصره او أواه فان عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يوخذ منه صرف ولا عدل .

23 ـ وانكم مهما اختلفتم فيه من شيء فان مرده الى الله والى محمد

24 ـ وان اليهود ينفقون مع المومنين ما داموا محاربين

25 ـ وان يهود بني عوف امة مع المومنين ، لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، مواليهم وانفسهم ، الا من ظلم او اثم فانه لا يوتغ الا نفسه واهل بيـتـه .

26 ـ وان ليهود بنى النجار ما ليهود بني عوف

27 ـ وان ليهود بنى الحارث مثل ما ليهود بنى عوف .

28 ـ وان ليهود بنى ساعدة مثل ما ليهود بنى عوف .

29 ـ وان ليهود بنى جشم مثل ما ليهود بنى عوف .

30 ـ وان ليهود بنى الاوس مثل ما ليهود بنى عوف .

31 ـ وان ليهود بنى ثعلبة مثل ما ليهود بنى عوف الا من ظلم او اثم فانه لا يوتغ الا نفسه وأهل بيتـه .

32 ـ وان جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم .

33 ـ وان لبني الشطيبة مثل ما ليهود بنى عوف ، وان البر دون الاثم

34 ـ وان موالى ثعلبة كأنفسهـم .

35 ـ وان بطانة يهود كأنفسهم .

36 ـ وانه لا يخرج منهم أحد الا باذن محمد

36م ـ وانه لاينحجز على ثار جرح ، وانه من فتك فبنفسه واهل بيته الا من ظلم ، وان الله على ابر هـذا .

37 ـ وان على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وان بينهم النصر على من حارب اهل هذه الصحيفة، وان بينهم النصح والنصيحة والبر دون الاثم

37م ـ وانه لا يأثم امرؤ بحليفه ، وان النصر للمظلوم .

38 ـ وان اليهود ينفقون مع المومنين ما داموا محاربين .

39 ـ وان يثرب حرام جوفها لاهل هذه الصحيفة .

40 ـ وان الجار كالنفس غير مضار ولا ءاثـم .

41 ـ وانه لا تجار حرمة الا باذن اهلها .

42 ـ وانه ما كان بين اهل هذه الصحيفة من حدث او اشتجار يخاف فساده فـان مرده الى الله والى محمـد رسول الله ص. وان الله على اتقى ما فى هذه الصحيفة وابره .

43 ـ وانه لا تجار قريش ولا من نصرها

44 ـ وان عليهم النصر على من دهم يثرب .

45 ـ واذا دعوا الى صلح يصالحونه ويلبسونـه ، فانهم يصالحونـه ويلبسونه وانهم اذا دعوا الى مثل ذلك فانهم لهم على المومنين الا من حارب فى الدين .

45م ـ على كل اناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم .

46 ـ وان يهود الاوس مواليهم وانفسهم على مثـل ما لهذه الصحيفـة مع البر المحض من اهل هذه الصحيفة ، وان البر دون الاثم ، لا يـكسب كاسب الا على نفسه وان الله على اصدق ما فى هذه الصحيفة وأبره .

47 ـ وانه لايحول هذا الكتاب دون ظالم او ءاثم . وانه من خرج ءامن ومن قعد ءامن بالمدينـة . الا من ظلم واثم ، وان الله جـار لمن بر واتقى ، ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

روى هذه الوثيقة جمع من مؤلفى السيرة النبوية ، وقد اثبتها صاحب مجموعة الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة وعدد مراجعها

في فهرس المصادر الملحق بكتابه . وليس في موادها ولا نصوصها ما يشتم منه عدم صحتها او ضعفها ' فهي تمثل ظروفا واقعة عند مقدم النبي عليه السلام والمهاجرين الى المدينة ايدتها كل الادلة الثابتة ، كما ان محتويات الوثيقة تتفق تماما مع مقتضيات الشريعة الاسلامية ، وفيها عبارات ذكرت باللفظ او بالمعنى في القرآن الكريم ، زيادة على انها تشتمل على الخطوط الرئيسية للسيرة التي سار عليها الرسول عليه السلام في بناء وحدة الامة وفي سياستها الداخلية ازاء كل طائفة من العرب ، والخارجية ازاء غير المسلمين من الامم .

ولكن هل اعلنت هذه الوثيقة قبل بدر او بعدها ؟

أما الرواة المسلمون فانهم يجمعون على انها وقعت بمجرد قدوم رسول الله ص الى المدينة . وفي ذلك يقول السيد محمد حميد الله في مقدمة مجموعة الوثائق السياسية المذكورة : (ولما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة وجد هنالك عدة قبائل يهودية فعاهدهم فدخلوا في دولة وفاقية ، (Fédération) تحت رياسة محمد ص) وقد أكد ذلك ايضا المستشرق ويلهاوزن الذى نشر البابين المشتملين على كتب النبي ص وذكر الوفود عليه من طبقات ابن سعد مع ترجمتها الى الالمانية والتعليق عليها .

وزعم هوبرت جريم في كتابه عن الرسول (ص) ان الوثيقة لم تقع الا بعد بدر ، لان وظيفة الحكم المعطاة للنبي ص في المادة 23 والمادة 35 ، تدل على ان سلطته كانت قد اعترف بها من قبل ، وايضا فان التلويح للجهاد في سبيل الله الواقع في المادتين 27 ، و 19 . وفي الدين في المادة45 ' تشير الى ان نوعا من الكفاح قد سبق . هذا الى ان الموقف المطلوب اتخاذه من المدينيين ازاء القرشيين لا يعقل الا بعد بدر اى بعد ان وقع عداء فعلي بين الجانبين .

وقد رد المستشرق الكاتتاني على جريم مبينا له ان الشبه التي عرضها لا تبلغ درجة الثبوت التي يظنها 'واذن فالصواب انها وقعت قبل بدر ونضيف نحن ان كل الظروف المحيطة بالرسول عند مقدمه المدينة تبين الضرورة التي تدعو الى تنظيم مركز المسلمين ورسولهم في الوسط الذى يقيمون فيه ، واستكمال الضمان الضرورى لحماية بيضتهم من خيانة يهود المدينة او مشركيها وتواطئهم من القرشيين . ولا يعقل ان يدخل المسلمون في غزوات مع قريش وظهرهم غير محمي ، ومركزهم في المدينة غير متين

والذى يظهر ان الوثيقة صدرت من أول مرة في صورتها الكاملة ، ولم تقع منجمة كما حاول المستشرق وات ان يستنتجه من تغاير بعض العبارات او تكرار ذكر بعض القبائل فان ذلك واضح الاسباب من العبارات نفسها .

ولكي نفهم الدستور المدني على حقيقته يجب ان نحلله الى عناصره الاساسية التى يتركب منها :

تكوين الامة الاسلامية

فاول ما يفيده القارىء من الدستور المدني :

أ ـ اعلان النبى صلى الله عليه وسلم تأسيس الامة .

ب ـ ان هذه الامة ليست مبنية على الدم او القرابة ، ولكن مبنية على العقيدة من جهة ، والتحالف والتضامن كحماية الامة من جهة أخرى .

ت ـ شكل هذه الامة وفاقى ، رابطته الارض (يثرب) والرئيس هو محمد رسول الله .

ث هذه الامة وحدة من دون الناس .

ج ابواب هذه الامة مفتوحة لمن شاء الانخراط فيها اما بالدخول مع المومنين في دعوتهم ، واما باللحاق بهم واتباعهم والجهاد معهم .

وكل هذا تتضمنه المادتان الاولى والثانية ، وهو يبين بوضوح كيف قام النبى ص بثورة عظيمة قلبت الوضع الاساسى للمجتمع العربى . فبينما كانت القبائل العربية تتطاحن فيما بينها ولا تعتبر لها رابطة غير رابطة الدم فى اضيق حدودها ، جاء النبى ص فجمع بينها في رابطة اسمى هى رابطة الامة الواحدة ذات الارض الواحدة وان اختلفت عقيدتها ونسبتها وسلالتها .

ومما يؤكد هذه الوحدة وصفتها ان النبى صلى الله عليه وسلم ذكر الوحدات القبلية باعتبار اتحاداتها ، ولم يذكر قبائل بنى قريظة والنضير وبنى قينقاع اليهودية عدا لها مع القبائل العربية التى تسكن هى فى ارضها ليمكن عد بنى قريظة والنضير مع يهود الاوس وثعلبة، لانهما يقيمان بين اوس الله وثعلبة بن عمرو بن عوف . وحينئذ يكون المقصود بهذه الجملة . يهود بنى عوف ، اليهود الذين كانوا متحدين مع هذه القبيلة ، أو تكون القبائل اليهودية اعتبرت متحدة مع بنى عبد الاشهل التى تعد من بنى النبيت

تتكون هذه الامة الوفاقية من ثلاث مجموعات :

1 ـ المومنون بمحمد ص من المهاجرين والانصار .

2 ـ القبائل العربية المتساكنة ، كل على ربعته ومواليه، ومن هاجر اليهم من قريش .

3 ـ اليهود المتساكنون مع القبائل العربية ومواليهم ويمكن ان نقول : ان هنالك تقسيمين متوازيين للجمتمع المدني بعد اعلان الدستور .

فهنالك من جهة المومنون من مهاجرين وأنصار .

وهناك المشركون واليهود .

وثمت القبائل العربية من مسلمين ومشركين، واليهود الملحقون بهم

فمن جهة النظام الخاص والتقاليد احتفظ لكل بربعته .

ومن جهة الدين تمايز المومنون عن غيرهم .

ولكن الجميع اتحد في تضامن تام لبناء صرح الامة والدفاع عن حوزتها تحت رعاية النبي وحكمه .

ولننظر حينئذ في مواد الدستور وردها لكل هذه الاقسام :

1 ـ ما يخص المومنين

تصف المادة العشرون المومنين المتقين على احسن هدى واقومه ، ومعنى ذلك انهم غير محتاجين للالتزام بعدم اجارة مال لقريش او نفس ، كما هو الحال بالنسبة للمشركين الذين تشترط ذلك عليهم المادة العشررن المكررة .

وتنص المادة 19 على ان دماء المومنين متكافئة .

كما توضح المادة 17 ان تضامن المومنين شيء مؤكد ، فسلمهم واحدة ، لايسالم مومن دون مومن في قتال الا على سواء وعدل بينهم

وتقول المادة 15 ان المومنين بعضهم اولياء بعض يجير عليهم ادناهم ، وهم يد على من سواهم ، من كل من بغى او اتبع طريق الظلم والعدوان او

الافساد بين المومنين ، وهم لا يراعون فى ذلك الا ولا ذمة ولو كان الباغى ولد احدهم (م I3) .

وليس من شان المومنين ان يتركوا مفرحا (وهو الذى لا نسب له ولا ولاء او القتيل يوجد بين القريتين) بل يعطونه بالمعروف فى فداء او عقل (م I2) .

ولا ينصر المومنون مبتدعا او مفسدا لامن الدولة ولا يؤوونه والا نالوا لعنة الله وغضبه (م 22) .

ولا يحالف مومن مولى مومن دونه ، اى بدون موافقته ورضاه ، (م I2م) ولا يقتل مومن مومنا فى كافر ، ولا ينصر كافرا على مومن (م I4) .

وكل ما اختلف فيه المومنون من شىء فمرده الى الله والى رسوله (م 23).

ويستبين من هذه الخصائص ان الامة المومنة بمحمد ترجع فى شؤونها كلها الى الله والى رسوله، وانها تعطى القدوة فى سلوكها حتى لتكون على احسن هدى واتمه ، وانها متضامنة في حماية بيضة المسلمين ، دماؤهم واحدة، وغاياتهم واحدة ، يحاربون متحدين ، ويسالمون متحدين ، ولا يظلمون ولا يؤوون محدثا او ظالما ، وهم اشداء على اعدائهم ، رحماء بينهم ، سلم لمن سالمهم ، حرب لمن عاداهم. اليست تلك هى صفات الاخوة الاسلامية التى وحدت بين المومنين ، وتحدث عنها القرآن من قبل الدستور ومن بعده ؟ وهاكذا فان محمدا عليه السلام ليس رسولا للمومنين فحسب ، ولاكنه رئيسهم ايضا.

2 ـ ما يعم القبائل العربية المتساكنة فى يثرب

ضمن الدستور لمختلف القبائل العربية المتساكنة فى يثرب سواء كانت اصلية او من الذين هاجروا من قريش ان يبقوا على ربعتهم ، وهى كعينة امرهم الذى كانوا عليه ، اى يجرون على ما تعارفوا عليه فى العقل وفى الفداء، بشرط ان لا يتجاوز ذلك حدود المعروف والقسط بين المومنين ، وهذه العبارة التى وردت مع كل الفقرات تدل على الاحتفاظ للاسلام بحق اصلاح التقاليد العربية والهجينة عليها باقرار بعضها ونبذ الاخر تبعا لتعاليم الدين المتتالية. وهذا ما تتضمنه المادة الثالثة وما بعدها حتى الحادية عشرة .

اما جملة (وكل طائفة تفدى عانيها الخ الواردة فى كل مادة من هذه المواد ، فتفيد ان القبائل العربية المذكورة تكون اتحادات من مختلف العشائر

او الفخذات فتجرى كل اجزاء تلك الاتحادات على ما كان لها من قبل فـي حدود اتحادها الخاص المرتبط بوفاقية الامة الاسلامية) ·

3 ـ ما يخص المشركين

يشتمل الدستور على مادتين تخصان المشركين ، الاولى تشترط عليهم ان لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا ولا يحول دونه على مومن (م 20) .

والثانية تنص على ان من اعتبط مومنا قتلا عن بينة فانه قود به الا ان يرضى ولى المقتول بالعقل (م 21) .

ويظهر ان المشركين فى المدينة كانوا عند هجرة النبى صلى الله عليه وسلم قلة لا ترى باسا من الانحياز الى المسلمين ، كما يظهر ان الاتصال الذى قام به النبي (ص) في العقبة والبيعة التى بايعته اياهـا وفود يثـرب مهدت له نفوس العرب المدنيين ، فلم يحتج معهم لاكثر من التنظيم والتوثيق.

4 ـ مـا يخص اليهـود

لا شك ان كثافة اليهود وتشددهم فى موقفهم جعل النبى (ص) يتاكد من امرهم اكثر مما فعل مع المشركين ، فبعد ان اعترف لهم انهم امة مـع المومنين لليهود دينهم وللمسلميـن دينهـم ، مواليهـم وانفسهـم ، نبه فى العهد الى ان من ظلم او اثم فانه لا يهلك الا نفسه واهل بيته (م 25) ·

وقد كان هاذا التأكيد لمختلف الطوائف اليهوديـة المذكورة باسمائها فى المواد 25 وما بعدها حتى 31 ، ثم فى المادة 33 . واكد نفس العهد لموالى كل طائفة من اليهود او بطانتهم ، وذلك ما تحتوى عليه المواد 32 ـ و 34 و 35 ـ و 36 ـ والمادة 47 ·

وقد استشكل (وات) تكرير ذكر يهود الاوس فى المادة 30 وفى المادة 46 والواقع انه لا اشكال فى ذلك ، لان الاولى خاصة بيهود الاوس انفسهم ، اما الثانية فيقصد منها مواليهم .

ثم ان في تامين كل وحدة من وحدات اليهود ومن مواليهم على نفسها ، وتحميلها وحدها مسؤولية ما يرتكبه اهلها ، محوا لكل رابطة خاصة بيـن مختلف الطوائف المتساكنة فى المدينة ، واحلال رابطة الامة مكانها ، مع فرض قانون الامة فى كل ما يرجع للفصل بين علاقات تلك الوحـدات مع بعضهـا

افرادا أو جماعات . وهذا من بديع العمل في اقرار سلطة الامة والاعتراف بها من الجميع .

واشترط الميثاق في المادة 36 على اليهود ان لا يخرج منهم احد الا باذن محمد (ص) وهاذا ما يؤكد سلطة النظام الاسلامي على القبائل اليهودية في المجتمع المدني ، والمقصود بالخروج في نظرنا الخروج مطلقا الى ما وراء منطقة الامة ، وليس الخروج للحرب كما فهمه بعض الشارحين .

وجاء في المادة (36 م) « وانه لا ينحجز على ثار جرح ، وانه من فتك فبنفسه واهل بيته، الا من ظلم ، وان الله على ابر هذا » والذى نفهمه من هذه المادة ان مما التزم به اليهود ان واحدا منهملا ينحجز اى لا يمتنع ويحمى نفسه اذا ترتب عليه ثار جرح اى عقاب جرح ارتكبه ، ولاكن العقاب لا يناله الا هو نفسه فيما يجب فيه القصاص والا نفسه واهل بيته فيما تجب فيه الدية ˙ ولاكن من ظلم اى اعتدى عليه فدافع عن نفسه فانه حينئذ لا يعاقب عقاب الجاني الاول ، وذلك يعني ان الدفاع عن النفس مشروع مبدئيا ، وقد لا يعاقب المظلوم اذا دافع عن نفسه ، ولاكن ذلك مقيد طبعا بما اذا لم يتمكن من رفع قضيته للسلطة المختصة ، فالعبارة في هذه المادة تشبه قوله تعالى في غير هذا الموضوع: « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول الا من ظلم » فالله لا يحب الجهر بالسوء من القول مطلقا ، ولاكن من ظلم معذور حين يدافع عن نفسه على كل حال. فكذلك من فتك فالمسؤولية عليه نفسه وعلى اهل بيته الا اذا كان مظلوما فدافع عن نفسه فان له عذرا مخففا على كل حال . ولهاذا اردفه بقوله : وان الله على ابر هذا ، اى انه سبحانه لا يصادق من كل اعمال الدفاع او الاخذ بالثار الا على ما هو بر وعدل ، اى ان اقرار المبدا الذى يعترف بحق الدفاع لا يمنع ابدا من تطبيق الشرع الالاهي لتحقيق البر والعدل (1) .

وفصل الدستور امر النفقات ، فنص على ان اليهود ينفقون مع المومنين ما داموا محاربين ، اى الفريقين ينفقان على الحرب ما داموا فيها ، فاذا كان

---

(1) ترجم وات هذه المادة بما يفهم منه غير ما بينا ، فقد جعل ضمير لايخرج احد في المادة 36 م ˙ عائدا على كل اهل الصحيفة ، وان المقصود بالخروج الخروج الى الحرب ، كما ترجم المادة 36م . على معنى ان احدا لايمنع من الانتقام من جرح اصابه ، ولكن اذا فتك ، فالفتك ينزل به وباهل بيته . واما شطر الفقرة الاخيرة فقد تشكك في مدلوله ، والصواب هو ما شرحنا به الفاوتين ، وهو ما يهدى له مدلولهما العربي . ومقتضى عدم التشويش في الضمائر ، انظر ترجمة وات ص 270 من كتاب محمد في المدينة Mohamed à Médine

المسلم فان على اليهود نفقتهم فيما يخص شؤونهم ، وعلى المسلمين نفقتهم فيما يخص شؤونهم ولاكن الطائفتين معا متضامنتان فى الدفاع ضد من حارب اهل هذه الصحيفة. وفى كل الاحوال فان علاقة بعضهم ببعض تقوم على النصح والنصيحة والبر دون الاثم ، والمقصود بالنصح الاخلاص وبالنصيحة الاعراب عنه اثناء العمل (مادة 24 ومادة 37) وتكررت المادة 24 بالحرف فى المادة 38 ولعل ذلك للتاكيد بمناسبة الحديث عن المواد العامة .

وتتوج هذه المواد الخاصة بيهود المدينة بالمادة 16 التى تفتح الباب على مصراعيه لمن اتبع المسلمين من يهود وتضمن له النصر والاسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم .

مواد تنظيمية

وتوجد الى جانب هذه المواد الاساسية مادة تنظيمية تتعلق بالتناوب الذى يجب ان يكون فى اثناء الغزو بين مختلف الطوائف على التعاقب فيما بينهم وهى المادة 18 . وهي الى جانب المواد المتعلقة بتوزيع النفقة كل فيما يخصه ، واشراك اليهود اذا حاربوا فى النفقة مع المسلمين. والى جانب المادة المادة 45 التى تقول : ان على كل اناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم ، تكون المواد التنظيمية فى العهد المدنى ، وخلاصة ما تحتوى عليه تلك المواد ان :

أ ــ على كل اناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم ، اى ما يكتتبون به من جنود اثناء الدفاع .

ب ــ ان كل غازية تعقب غيرها ، فنظام التعبئة دورى .

ج ــ ان النفقة على الجميع اثناء الحرب ، ثم كل يتكلف بالنفقات الخاصة بطائفته اثناء السلم ، وهو نوع من الذاتية المالية لكل طائفة فيما يخصها ، ولا شك انه يستثنى من هذا ما شرع بعد من زكوات وخراج وغيره .

اصول عامة

ينص الدستور المدنى على اصول دستورية عامة ، تشمل طوائف الامة باسرها ، ويجب على الكل اتباعها ، وهى :

أ ـ ان يثرب (المدينة) حرام جوفها لاهــل هذه الصحيفة ، ومعنــى ماذا انها حمى لهم ، لا يمسها احد من دونهم بغير رضاهم (م 39) .

ب ـ ان من جاور بها او دخل في جوارها فهو محمى بمثل ما تحمى به النفس ، بشرط ان لا يضار ولا يأثم . وهو ما يدل على ان باب الامــة مفتوحة لجميع القبائل والشعوب ، وما يفسر بوضوح الكتب التى ارسلها النبى للملوك والرؤساء يطلب منهم الدخول فى حظيرة الامة بالاسلام او بالدخول فى ذمة المسلمين .

ج ـ ولكن اذا كان الاحترام والدخول فى الجوار ممكنا ، فان حرمة الاخرين لا تجار بغير موافقة اهلها ، (م 41) والمعنى انه لا ترغم امة او قرية على الاحترام بالمسلمين دون رضا اهلها . فالحماية لا تفرض ، وانما يقبل المسلمون من طلب الدخول فى حمايتهم وذمتهم . وقد فسر « وات » الحرمة هنا بالمرأة ، اى ان المسلمين لا يقبلون جوار المرأة بدون رضــا اهلها ، وهو بعيد ، لانه اذا كان المقصود بالجوار الدخول فى الاســلام فلا يعقل ان يوافق النبى على اشتراط اذن اهل المرأة اذا شاءت الدخول للاسلام لانه لم يكن ليرد احدا يريد ان يسلم رجلا كان او امرأة . واذا كان المقصود به الاحتماء فهو مبذول لجميع اهل الصحيفة ذكرانا كانوا او اناثا ، فالصواب هو ما شرحنا به المادة .

د ـ ويؤكد هذا ، اى كونه يتعلق بجوار الاراضــى الاجنبيــة او المهاجرين الاجانب عن الصحيفة ما فى المادة 43 : من انه لا تجار قريش ولا من نصرها ، فهو التزام من اهل الصحيفة عامة بعدم حماية كفار قريش ومن ناصرهم من الاحــلاف ، لان المعارضة القرشية تــتجلى فيهم ، فهم الــذين يقاومون نشر دعوة الاسلام ويحاولون منع دولته من الترعرع .

هـ ـ وما دام اهل هذه الصحيفة يكونون امة دعوة ، ويقفون صفا واحدا ضد الوثنية العربية ، فمن المتوقع ان يداهمهم العدو ، ولذلك اصبح من الضرورى تاكيد المناصرة ضد كل من دهم يثرب او هاجمها ، وهو ما تنص عليه المادة 44 .

و ـ وهذه الحرب الدفاعية لا ترمــى لاكثر من حماية حــوزة الامة وتحقيق حرية الدعوة للدين ، وعليه فيجب ان يكون المقاتلون صفا واحدا ، اذا دعاهم ولــى الامر الى صلح نافع اجابوا اليه ولبوه ، كمــا ان طوائــف هذه الصحيفة اذا دعت الى صلح كان على المومنين ان يجيبوا دعوتهم الا

اذا كان الامر يتعلق بمن حارب الدين ، فانه لا تجب الاستجابة لدعوة الصلح حينئذ . ومن المعلوم ان العدو المنتظر هم القرشيون الذين حاربوا الدين واخرجوا النبى (ص) والمسلمين من ديارهم بغير حق ، فالمادة 45 اذن تؤكد هيمنة الدعوة الاسلامية في تقرير مصير الحرب والسلام فى المدينة العربية .

ز ـ فاذا وقع نزاع بين اهل هذه الصحيفة او اشتجار يخاف فساده اى من شانه ان يفرق وحدة الامة ، فان مرد ذلك الى الله والى محمد رسول الله (ص) وان الله على اتقى ما فى هذه الصحيفة وابره (م 42) وهو ما يؤكد لرسول الله وبصفته رسول الله مرتبة الرئيس المرجوع اليه فى الفصل القضائى بين المتخاصمين ، واهل الكتاب قاطبة يعلمون ان من صفة الرسول القضاء بين الناس ، كما يدل له قول الله عز وجل :

(ولكل امة رسول ، فاذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون) .

اصول عامة ايضا

وهنالك اصول عامة لا تتعلق بكيان الامة وحوزتها فقط ولاكنها تتعلق بحقوق انسانية من مادة 47 على ثلاثة منها :

أ ـ لا يحول هذا الكتاب دون ظالم او آثم . فالمسؤولية ثابتة ، لا منها عهد الامان ولا وثيقة ، وهذا اقرار بحق الله اى ما يسمى اليوم بالحق العام .

ب ـ من خرج آمن ، ومن قعد آمن ، بالمدينة الا من ظلم وأثم ، والغالب ان المقصود بالخروج هنا الغزو ، اى ان من لم يخرج للغزو فانه آمن الا اذا ارتكب ظلما او اثما .

ج ـ جوار الله ورسوله اى حمايتهما لمن بر بوعده واتقى فى عمله وسلوكه .

د ـ وتنص المادة 46 ، على انه لا يكسب كاسب الا على نفسه ، وهذا ضمان لعدم معاقبة احد بجرم غيره ، اى اقرار للمسؤولية الشخصية ، وهو ما اكده القرءان فى قوله :

« ولا تزر وازرة وزر اخرى ، وفي قوله : وان ليس للانسان الا ما سعى ، وان سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الاوفى » .

وفى المادة 37 نقطتان :

هـ ـ لا يأثم امرؤ بحليفه ، وهي مادة تهدم ما كان مألوفا عند العرب من اخذ الحليف بجرم حليفه ، اذ كان الرجل يتحالف مع الاخر ويقول له : ترثنى وارثك ، وتجنى على وأجنى عليك ، وهى من الحيل التي استعملها الاقدمون لتوسعة العمل بالقوانين او بالتقاليد ، وقد الغى الاسلام منها ما يرجع للاخذ بالجريمة ، لما الغى منها حيلة التبنى لاثبات النسب .

و ـ النصر للمظلوم ، ومن المعلوم ان المظلوم والضعيف في الحكم الاسلامى يمثلان القوة الكاملة حتي ينالا حقهما كما قال عمر بن الخطاب فى خطبته حين ولى الخلافة .

والان بعد ان عرفنا محتويات هذا الدستور الاول الذى اعلنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شكل عهد بينه وبين المومنين به من جهة ، وبين مختلف الطوائف المتساكنة في المدينة من جهة اخرى ، فهل نجد فيه شيئا يتنافى مع مقتضيات النصوص القرآنية والنبوية التى تبين اصول الحكم الاسلامى ؟ انه حقيقة النموذج الاول للمدينة الاسلامية التى ستصبح اوسع مما بين لابتى بلاد كسرى وقيصر .

لقد استشكل بعض الاجانب قيام هذه الوحدة الوفاقية ، فزعم ان الامة فى الاسلام ليست مركبة من الافراد ولكن من الطوائف ، وهو خطأ شنيع ، لان الامة المومنة قائمة بنفسها وتندمج معها امم اخرى او طوائف تفضل البقاء على دينها ولا يكرهها الاسلام على مفارقته ، فتتمتع بنفس الحقوق الانسانية والمدنية التى يتمتع بها المومنون ، لان الجميع داخل فى ذمة الله وميثاقه الذى واثقهم به على لسان رسوله .

واذا اردنا ان ندرك صورة المجتمع المدنى كما بناه الرسول (ص) ، فلنسمع لهذه الاية الكريمة :

« ياأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم » .

انه اعلان للاخوة البشرية المتساوية فى الحقوق والواجبات وفى

موجبات الكرامة ، وانك مهما تصفحت اعلانات حقوق الانسان الخاصة والعامة فلن تجد واحدة منها تضاهى هذه الاية الكريمة ، كما انك لن تجد دستورا لدولة ما ، يشتمل على التصريح بالاخوة البشرية غير القرآن ؟ ان كل الدساتير تعلن المساواة بين المواطنين فحسب وتدخر للاجانب موادا فيها من الاستثناء الشيء الكثير .

واذا كان هذا الاعلان القرآنى الاول من نوعه ، فان خير تطبيق له هو هذا الدستور المدنى الذى سوى فى الحقوق والواجبات بين المومنين وبين غيرهم فى حكومة يرأسها النبى الكريم ، وفى مواطنة مفتوحة لكل من رضى بالرسول وبما اعلنه من دين ومن تشريع .

ثم لنستمع لهذه الاية الاخرى لنعلم السر فى قبول غير المسلمين نصرة النبى الامين :

واذ اخذ الله ميثاق النبيئين لما آتيناكم من كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتومنن به ولتنصرنه ؟

قال آقررتم واخذتم على ذلكم اصرى ؟

قالوا اقررنا .

قال فاشهدوا وانا معكم من الشاهدين .

فقد أخذ الله الميثاق على الانبياء وعلى اممهم طبعا ، لان الانبياء زعماء اممهم وهاؤلاء تبع لهم ، يلزمهم ما التزم به الانبياء وان لم يرد لاممهم ذكر معهم ، فلما جاء محمد مصدقا لما معهم ، وجب ان يومن اتباع الانبياء السابقين بنبوته وان ينصروه . وقد اتفق سكان المدينة على اعتباره رسولا رئيسا قاضيا ، والتزموا بنصرته وان لم يومن بعضهم ايمان المسلمين بنبوته ، لقد قبلوا رئاسته ، والتزموا بحماية دعوته كما التزموا بقبول احكامه التى لا يمكن ان تخالف مقتضيات شريعته ، فقبل ذلك منهم عليه السلام لانه لم يبعث عليهم جبارا ، ووفى لهم بوعده ، ووفى المومنون والعرب ، فاما الذين خانوا من اليهود فقد طبق عليهم الرسول مقتضيات المادتين 13 ، و 22 من الدستور .

وهاكذا اسس عليه السلام فى المدينة المنورة دار سلام يهاجر اليها كل الذين تبوأوا الدار والايمان كما تبوأهما اهلها ، ويشع منها الحكم الاسلامى القائم على الحرية والايمان والعدل والشورى .

وفى هذه الدار تلقى الرسول بيعة النساء من السيدات المسلمات ، اللائى بايعنه على ان لا يشركن بالله شيئا ، ولا يسرقن ولا يزنين ، ولا يقتلن اولادهن ولا ياتين ببهتان يفترينه بين ايديهن وارجلهن ولا يعصينه فى معروف ، وبايع الرجال على مثلها ، وتوالت الوفود تؤكد بيعتها واسلامها ، وارسل عليه السلام الى الملوك والرؤساء يدعوهم فى كتبه للدخول فى حظيرة الدعوة الحق ، دعوة السلام والاتفاق على كلمة سواء ، ان لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله .

وكلما اسلمت جبهة او دخلت فى عهد المسلمين ارسل اليها عليه السلام واليا يدبر شؤونها الدينية والدنيوية ويتولى امامة الصلاة باهلها ويعلمهم احكام الدين ، ويأخذ الزكوات والاعشار ، ويوحدهم فى سبيل البر والعدل وحماية الذمار .

طبيعة الحكومة المحمدية

ومن مجموع ما تقدم نستخلص ان طبيعة الحكومة المحمدية كانت شورية مقيدة ، لانها كانت تسير بمقتضى العهد الذى اعلنه عليه السلام والتزم به كما التزم به الشعب العربى فى المدينة ، واحسن من ذلك انه عليه السلام كان مقيدا بميثاق اعلى واسمى من كل دستور وهو القرآن الكريم او الوحى الالاهى ، فقد قال تعالى مخاطبا لنبيه :

« وان احكم بينهم بما انزل الله ، ولا تتبع اهواءهم ، واحذرهم ان يفتنوك عن بعض ما انزل الله اليك» .

واذن فالقرآن هو الاصل الدستورى للحكم النبوى ، وكل احكامه عليه السلام انما هى تنفيذ وتبيين لما اوحى الله به ، ولذلك يجب امتثاله عملا بقوله تعالى :

« وما كان لمومن ولا مومنة اذا قضى الله ورسوله امرا ان تكون لهم الخيرة من امرهم » .

هذه الطاعة الواجبة لما يبلغه الرسول عن ربه او يقضى به من الاحكام امتثالا لتشريعته ، يقابلها ضمان قرآنى بعصمة الرسول من ان يعبد احدا او يطغى على احد ، قال تعالى :

« ما كان لبشر ان يوتيه الله الكتاب والحكم والنبوءة ثم يقول للناس: كونوا عبادا لى من دون الله ، ولاكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون » .

فالنبى اذن مقيد بأن يحكم بما انزل الله ، وذلك ما يوجب الامتثال له ، وهو لا يطغى ولا يتجاوز حدود الرسول الحاكم العدل ، والامران قائمان فى حق غيره من حكام المسلمين ، عليهم ان يسيروا بمقتضى الدستور القرآنى واحكام الشريعة فتجب على الرعية طاعتهم ، وعليهم ان لا يعبدوا الناس ولا يطغوا عليهم ، والا امتنعت الطاعة عنهم .

فهل هنالك حكم مقيد اكثر من حكم الرسول عليه السلام . انه يقوم على التمسك باحكام القرآن ، وعلى الشورى وتدبير ما فيه المصلحة الدينية والدنيوية للجميع ، ثم الدعوة الذاتية للايمان وللاخاء بين الشعوب ، وتوحيدهم في شريعة الاسلام ودار السلام .

اما طبيعة الحكم الاسلامى بعد وفاة الرسول فهم ما سنتحدث عنه فى فصل مقبل ، قبل ان نستخلص القواعد الاساسية للديموقراطية الاسلامية (1) .

علال الفاسى

---

(1) اصل هذه الفصول من محاضراتى على طلبة كلية الحقوق عن النظريات العامة فى الفقه الاسلامى ، وهى التى تكون كتابا قائما بنفسه

آراء ابن رشد السياسية

كتبها للبينة الدكتور ا.ج. روزنطال
الاستاذ بجامعة كامبريدج
تعريب « البينة »

قد نخطيء اذا اعتبرنا ابن رشد من كبار مفسري فلسفة ارسطاطاليس فقط . فقد كان ايضا من شراح جمهورية افلاطون وان كان لم ينفذ الى آراء هذا الفيلسوف في السياسة .

ان ابن رشد يقسم علم السياسة الى قسمين كما هو الحال في علم الطب ويقول لنا ان علم الاخلاق لارسطاطاليس يكون الجزء الاول من الوجهة النظرية وان جمهورية افلاطون تكون الجزء الثاني من الناحية العملية .

وعلم السياسة جزء لا يتجزأ من الفلسفة العملية. اما جزآها الاخران فهما علم الاخلاق وعلم الاقتصاد . وتقسيم الفلسفة على هذا الشكل من الآراء اليونانية .

وان مما يجعل شرح ابن رشد لجمهورية افلاطون مهما ومفيدا في نفس الوقت ، هو انه يخرج عن المالوف في الشروح الاخرى ، بل يشذ عن مذهبه الفلسفي . فابن رشد يستعمل كتاب افلاطون كما انتهى اليه بالنص العربي لتحليل الدولة الاسلامية وبالاخص لانتقاد الدولتين اللتين عاصرهما : دولة المرابطين ، ودولة الموحدين . على انه يستند في انتقاده على الخبرة التي اكتسبها من شغله منصب القضاء المالكي في قرطبة . وقد لا نحيد عن الصواب

اذ اكدنا ان وظيفة القضاء بقيت على ما هي عليه ابان الموحدين والدولة المرابطية قبلهم ، وان جد ابن رشد كان يشغل مرتبة قاضي القضاة . ومعنى هذا ان القاضي لم يكن يقتصر على اصدار الاحكام ، بل كان يشتغل ايضا بالادارة المدنية . فتجمعت لابن رشد خبرة واسعة متينة عن الحياة السياسية في كافة مظاهرها ، وتكونت له نظرة عميقة عن اسرار نظام الدولة والمجتمع الاسلامي .

وبالاضافة الى ذلك كان يرى رأى افلاطون في ان قيادة الدولة ينبغي ان تكون بيد الفلاسفة ، واذا تعذر ذلك فينبغي لهم ان ينتقدوا الادارة حسب ما لهم من مقاييس عقلية لاصلاحها وتحسينها . فالفيلسوف فوق تطاحن الاحزاب والمصالح الخاصة المتنافية وبمعزل عنها. وهو انما يخدم الحقيقة التى ينشدها بتحكيم العقل ــ هذه الموهبة الثمينة التى وهبها اللهللانسان ــ بكل شجاعة وحرية .

ولا ينبغي ان ننسى ان ابن رشد كان فيلسوفا متدينا

لقد اقتفى ابن رشد اثر افلاطون في البحث عن الحقيقة بالنسبة الى الدولة . ولا يمكنني في هذه العجالة ان أفيض في شرح آرائه السياسية في دائرة فلسفته بأكملها .

ولكن سأقتصر على بيان شيئين اساسيين في شرحه لافلاطون ، وهما : مكانة القانون الالهي ، وقانون الخليقة في الدولة ، وانتقاده الصريح للدولة الاسلامية في عصره بما في ذلك استنكاره المدهش لمكانة المرأة في الاسلام .

اثر الفلسفة في التفكير السياسي لابن رشد

وقبل كل شيء ينبغي ان ادلى بملاحظات عامة عن مكانة الفلسفة في الاعمال الفكرية العظيمة لابنرشد آخركبار فلاسفة الاسلام فيالقرونالوسطى

فمن الضروري ان نعرف المقام المهين الذى كان للفلسفة والفلاسفة في عصر ابن رشد لنفهم هذا الفيلسوف فهما جيدا . ان تهجمات الغزالي قد اضطرت الفلسفة الاسلامية الى البقاء في موقف الدفاع . ومهما كان توفيق ابن رشد في كتابه « تهافت التهافت » فان هذا الكتاب يعد في الواقع انتصارا للغزالي ساعد على تحول الفلسفة الاسلامية فيما بعده . ان دفاع ابن رشد سببه الهجوم الذى شنه أحد زعماء المتكلمين الفلاسفة والذى حصر الفكر الحر

في نطاق ضيق . فينبغي ان نذكر هذه الحقيقة التي لا جدال فيها كلما قرأنا اثر ابن رشد . فهو مسلم يقبل بكل اطمئنان سيادة الشريعة وتحديد نطاق الجدل الفلسفي . ويجب ان يومن المتدينون سواء منهم الفلاسفة او المتكلمون او الجمهور بالمعتقدات الدينية . فهذه المعتقدات خارجة عن ابحاث الفلاسفة الذين يعتمدون في تفكيرهم على الحجة والبيان .

ان هذ الموقف جاء نتيجة للتهجم على الفلسفة . ولكن ابن رشد في دائرة هذا الموقف كان يؤيد احقية الباحثين في علم الغيب وواجبهم في التدليل على صحة الدين بالحجة الفلسفية والبرهان العقلي .

ومن المهم ان نعترف بان ابن رشد يقول بالرأى التقليدى للتنزيل فيما يتعلق بنظرية النبوة ، وانه يعارض في نظرية الفلاسفة المتقدمين الذين تاثروا برأى افلاطون واعتبروا النبوة نابعة عن الذكاء الفعال . فينبغي ان نطبق هذا الرأى المهم على سياسة ابن رشد : فهو يرى ان المسلم لا تشترط فيه هبة النبوة . فقد يكون جامعا بين صفات الملك الفيلسوف المشرع – على غرار ما يذهب اليه افلاطون – وصفات الامام كما تنص عليه النظرية الاسلامية . أما الفارابى وابن سينا ، فيؤكدان ضرورة انتساب حاكم الدولة للنبوة .

وبالاضافة الى ذلك ، فمن الضرورى الاطلاع على اثر ابن رشد في مجموعه ، وعلى تفاسيره ومساجلاته كفصل المقال وتهافت التهافت لمعرفة آرائه ومواقفه الدينية والفلسفية .

واذا نظرنا الى آثاره من خلال معركته مع العلماء والفقهاء فلا عجب ان نلاحظ عند ابن رشد بعض الغموض والتناقض من حين لآخر . اذ لايخفى انه كان يخدم الموحدين زعماء المذهب السنى ودعاة الاسلام فى نقائه الاول وان كانوا يميلون الى التأملات الفلسفية . بيد انى أعتقد ان ابن رشد كان مسلما اولا وفيلسوفا بعد ذلك . ولا يخفى انه من الصعب ان لم يكن من المستحيل التوفيق بين الوحى والعقل او بين القانون الالهى والقانون البشرى الناتج عن العقل . ويبدو لى انه لم يوجد اى مفكر فى العصور الوسطى استطاع ان يوفق بينهما توفيقا تاما سواء كان هذا المفكر مسلما او يهوديا او مسيحيا . وأرى ان ابن رشد اعطى الاسبقية للايمان ولم يقل عن قصد ببعض الآراء الدينية المستندة على التخمينات . وهو يؤكد على كل حال ان الدين والفلسفة متحدان فى نواياهما ازاء الشريعة . والفيلسوف وحده هو الذى يستطيع ان يفسر الوحى من الناحية العقلية مما لا يستطيعه الفقهاء الذين لا يتوفرون على الحجة

* البينة . فحجة المنطق غير كافية ، بل هى خطيرة بالنسبة لجمهرة المؤمنين . ولقد كتب ابن رشد مساجلاته للدفاع عن الشريعة . والشريعة هي الحكم الفصل في ما يجب الايمان به . ونجد اقوالا متشابهة مع بعضها في هذا الموضوع في شرحه لجمهورية افلاطون وفي كتابه فصل المقال . ان الفرق الاساسى بين الفلسفة والشريعة هو ان الفلسفة تلقن للصفوة المختارة بينما الدين يلقن للجمهور وكلتاهما تنشدان الحقيقة . ونشير هنا الى ان الحقيقة المزدوجة المنسوبة الى ابن رشد خطأ ، وانما ادعاها بعض اللاتينيين من اتباعه . فالوحي كالعقل يلقن الحقيقة . لكن للوحي المقام الاول لانه ناتج عن حكمة الله المطلقة ، بينما العقل مصدره الانسان الذى لا يخلو من الخطأ . ونؤكد ان البحث في علم الغيب هو الذى يستطيع وحده ان يفسر الحقيقة الالهية تفسيرا حقيقيا أى ان يجلو معناها الباطنى والواقعي . فالفرق بين المعنى الباطن والمعنى الظاهر احدى القواعد التي يعتمد عليها شرح القرآن وكذلك اعمال الفلاسفة. اذ ان الظاهر والباطن من خصائص علم الدين والفتوى والفلسفة . والجماهير التى تصدر عن الحجج الشعرية والبيانية هى التى تتقبل الوحي على اطلاقه . ومن المهم ان نشير الى ان ابن رشد يلح فى وجوب تسليم الطبقات الثلاث : الفلاسفة والمتكلمين والجمهور بوجود الله وبالرسالة وبالآخرة حيث يلقى الانسان الثواب والعقاب على اعماله . على ان كل طبقة من هذه الطبقات تفهم هذه الامور حسب درجة ادراكها طبعا . وامور العبادة خارجة هي ايضا عن التفسير العقلى . وفى هذا نجد اثر الغزالى واضحا .

أثر الدين فى تفكيره السياسى

ان ما يهمنا فى هذا البحث هو العلاقة الحالية الموجودة بين الدين والتفكير السياسى لابن رشد . لقد دخلت فلسفة افلاطون وابن رشد التى شرحها تلامذة افلاطون فى الاسلام لان آراء اليونان والاسلام من الناحية السياسية تستند جميعها على مبدا العدل. ويتمثل هذا العدل فى قانون ينظم شؤون البشر فى الدولة .

وهذا الاساس هو الذى اعان على تقبل مفكرى الاسلام فى العصور الوسطى لآراء افلاطون وأرسطاطاليس. وقد اتخذ العراك ما بين الايمان والعقل شكلا دقيقا بين القانون الالهى اوالشريعة والقانون البشرى (Nomos)

* وبينما افلاطون يرى ان الدولة اليونانية (politeia) دولة مثالية ، اذ

يعتبرها ابن رشد أحسن دولة خارجة عن الدين . ويرى ان الدولة الاسلامية هى الدولة المثالية لانها مبنية على الشريعة . وبما انها تستمد أصولها من النبوة فهى تفوق قانون افلاطون الذى يستند على العقل البشرى . بيد أنه وقع امتزاج بين الافكار اليونانية والافكار الاسلامية من الوجهة السياسية على الرغم مما بين النظامين من اختلافات اساسية . وفى الواقع لقد تم الاتصال بين الوحى والعقل عن طريق الفلسفة الواقعية ثم امتد الى الفلسفة النظرية التى استعملت لشرح المعتقدات الدينية . وابن رشد متفق مع افلاطون في اضطرار الدولة سواء منها اليونانية او الاسلامية الى المعتقدات

ان الغاية من القانون عند ابن رشد هي معرفة الله والحقيقة والايمان بالسعادة والشقاء فى الدار الآخرة . فيجب ان تقودنا اعمالنا الى السعادة وتجنبنا الشقاء . وقد اشار الى الهدف العملى للقانون السياسى فى هذه الدنيا . وأفلاطون هو الذى بين للفلاسفة بوضوح المعنى السياسى للقانون . فالسعادة عند اليونانيين هى الغاية من علم السياسة. والهدف الذى يجب بلوغه هو الخير العام (Sommum bonum) اما السعادة فيطلقون عليها (Eudaimonia) وهي تعنى التامل وعمل الخير او هما معا بحسب كل مفكر على حدة . ومما يذكر ان الفارابى افرد كتابا خاصا لهذه المسالة هو كتاب تحصيل السعادة . وهذه هى العلاقة بين السياسة والدين وبين قانون افلاطون وقانون الاسلام أى الشريعة . ان قاعدة الدولة هي القانون . وتتوقف خصائص الدولة وحالة المواطنين على القانون الجارى به العمل . والفيلسوف فى الدولة الاسلامية مكلف بواجب خاص وهو شرح القانون الالهى بالبرهان اليقينى. والبرهان اليقيني لا غيره هو الكفيل باظهار الحقيقة .

ويمكننا ان ندرك بسهولة لماذا حمل المتكلمون والفقهاء اى المفسرون والحماة التقليديون للقانون الالهى على هذا الرأى الذى ذهب اليه الفلاسفة.

ثم ان ابن رشد من جهة اخرى طلب من الملك الموحدى ان يحذر المتكلمين اشاعة آرائهم المبنية على الجدل المنطقى وسط الجمهور ، لانها لا تكتسى صبغة يقينية . وربما كان هذا هو السبب فى نفيه الموقت حينما ازمع الخليفة الموحدى الذهاب الى الجهاد . فهل كان ذلك منه ترضية للفقهاء كى يلم شعث المومنين حول رأيته ؟

ان ابن رشد ــ على ما أرى ــ كان يفرق بغاية الوضوح بين الشريعة وبين القانون كما حدده افلاطون لانه كان يعطى الاولوية للشريعة بوصفه

مسلما كما تقدم لنا . وموقفه الايجابى من القانون الالهى كان ييسر له المقارنة بين هذا القانون ومختلف القوانين التى ذكرها ارسطاطاليس (العامة منها والخاصة) والتي تشجع على اقامة الانصاف ولا يوجد بها عدل مطلق ولكنها تفسح المجال لعدل مصطلح عليه او عدل سياسى حسب رأى ابن رشد . اما الشريعة فهى القانون الكامل للدولة الاسلامية اى للخلافة على عهد الخلفاء الراشدين تلك الدولة التى فاقت فى المثالية دولة أفلاطون (politeia) حيث ينص فيها على الملك الفيلسوف .

وحيث ان الخلافة مظهر سياسى للقانون الالهى الذى اوحى به للرسول ، فلا ينبغي للمسلم ان يتطلب من حاكم الدولة ان يتصف بأوصاف النبوءة . وفي هذا يختلف ابن رشد عن الفارابي وابن سينا . فالامام فى نظره خليفة الرسول المشرع . والخلافة تتميز بكونها تطبق تطبيقا تاما قانون الرسول الذى هو مشرع اكثر مما هو صانع المعجزات . وهذا القانون الذى اوحى به الله لرسوله يعنى بالانسان فى هذه الدنيا ويعنى به أكثر فى الاخرى . فهو يحمل اليه الحسنيين : طيب العيش فى الدنيا والسلامة فى الآخرة . بيد أن قانون افلاطون يهتم فحسب – فى نظر ابن رشد – بطيب العيش فى الدنيا . وقد وضعه بعض الفلاسفة لنخبة قليلة من الناس فى جملتهم هؤلاء الفلاسفة لتوفير السعادة لهم قبل غيرهم . اما الدهماء فيكدون ويتعبون لكى يحققوا لغيرهم الهدف البشرى وهو الخير الاسمى . وابن رشد يندد بأفلاطون لانه لم يقم وزنا لعامة الناس . وسلامة كافة المؤمنين من الاهمية بمكان فى نظر المسلم ، وابن رشد لا يميز بين الناس . والقانون الالهى يكفل الامن لجميع الذين يتبعون أوامره حسب مراتبهم . والفرق فى السعادة بين الناس من الناحية الدينية مسألة مراتب لا مسألة أشخاص . فالناس سواء امام الله . وهو يقضى بينهم حسب فضائلهم لا حسب تفكيرهم . وهذا موقف الايمان طبعا لا موقف الفلسفة . على ان ابن رشد يعد بالسعادة المثلى الباحثين فى علم الغيب ممن يدركون مرتبة عليا فى العرفان ويتوصلون الى معرفة الله معرفة حقيقية عميقة بفضل ذكائهم النامى وتاملاتهم العقلية . ومن جهة اخرى يلح بوصفه مسلما بان الشريعة تكفل السلامة للجميع .

الدولة عند ابن رشد

ولنعد مرة اخرى الى الخلافة هذه الدولة الاسلامية المثلى . ان ابن رشد يدرك اهمية الخلافة ويراها مثالية باعتباره سنيا ، ولكنه كفيلسوف يقارنها بدولة افلاطون المثالية على الرغم مما بينهما من فروق اساسية . وقد كان يرجع الى الخلافة والى دولة أفلاطون Politeia لفهم الدولة الاسلامية التي كان يعاصرها لاصدار احكامه في شأنها. وهناك تشابه بين الدول غير الكاملة التي ذكرها افلاطون وبين نظام الملك في الاسلام. ولقد اخذ ابن رشد تعابير الفارابي في حديثه عن الدول غير الكاملة . وهذا الاخير هو الذي ادخل التعابير الفلاطونية في الاسلام. ولكن ابن رشد كان اكثر دقة منه، فتقسيماته تفوق تقسيمات الفارابي الذي اقتصر على ذكر دول أفلاطون الاربع وهي : الديمقراطية (Démocratie) والحكم المطلق السلطة (Autocratie) وحكم العصبية (Oligarchie) والحكم الاستبدادي (Tyrannie) وبذلك أدخل الفارابي الفلسفة السياسية الاغريقية في الاسلام .

وكان ابن رشد يعتبر ـ مثل ابن خلدون بعد ذلك ـ نظام الملك في الاسلام نظاما مختلطا. فقد حافظ هذا الملك على العناصر الاساسية للخلافة الاسلامية من الوجهتين النظرية والعملية . ولكنه أصبح مشوبا برغبة الملك في الاحتفاظ على سلطته وحكمه الفردي . وقد قاس ابن رشد الدولة الاسلامية في المغرب بالخلافة وبالدولة المثالية في نظر افلاطون وكذلك بالدول الاربع غير الكاملة . فما معنى ذلك ؟ يبدو لي ان ابن رشد قام بعمل بالغ الاهمية والجدة اذ أعطى لشرحه « جمهورية » افلاطون صبغة خاصة عبر عنها في نقده العميق للدولة التي كان موظفا فيها . وبالاضافة الى ذلك فان هذا الشارح والناقد طبق المقاييس الفلاطونية على الدولة المغربية . لانه كان مقتنعا بان افلاطون الذي اخذ عنه ارسطاليس اهم نظرياته كان متوغلا في ادراك معنى السياسة واسس الدولة وفسادها بل وتدرجها الى الانحلال الى أن تصبح من الدول الناقصة شأنها في ذلك شأن الانسان والجنس البشرى . وهنا يتفق المسلم مع الفيلسوف. غير ان الدولة المثالية المبنية على العدل والتى تدبر شؤونها الحكمة السياسية يمكن أن تقود الانسان الذى يحكم عقله الى السلامة .

وهنا ينبغي ان اسوق بعض الامثلة لتأييد ماقلت ، وسأبدأ بالامثلة عن القوانين العامة والخاصة .

« ان القوانين العامة ضرورية للدولة ولتسيير شؤونها · وهـو شيء بديهى لان الافراد الذين ينشأون تحت كفالة هذه القوانين والاوضاع العامة يبلغون الى القوانين الخاصة بفضل مجهوداتهم الشخصية · مثال ذلك احترام الوالدين والتزام الصمت أمام الكبار وما يماثل ذلك من القوانين العملية · فقد نخطىء اذا اعتبرنا هذه الامور كقوانين. فكلواحد يقوم بهذهالاعمالدون ما تقيد بالقوانين العامة ، وقد يكون أشبه برجل يعالج اناسا لا يستطيعون التداوى من كثرة ما ينهمكون فى اشباع شهوات البطن والفرج » ·

ويقول ابن رشد ان المعرفة النظرية اى معرفة الهـدف الانسانـى الحقيقى الذى لا يمكن بلوغه الا بالبحث فى العلوم النظرية هذه المعرفة ضرورية للحكماء الذين يسيرون دفة الحكم .

وفى حديثه عن العدل ، يوافق ابن رشد ما ذهب اليه أفلاطون من ان المواطن يجب ان يقتصر على القيام بشغل واحد يلائم ملكاته · وهذا ما يسميه بالمدنية · وهنا يظهر بوضوح تأثير افلاطون وارسطاطاليس اللـذين لقنـاه المعنى السياسى للفضائل والقانون المبنى عليها .

وفى نفس الوقت حين يأخذ ابن رشد فى مناقشة معانى الظلم ويعتبره عملا ذميما للفرد الذى يمارس اكثر من شغل واحد نراه « يشير الى ما حصل فى هذه الدول» اى فى الدولة الاسلاميةالمغربية. وهذا يدل علىان ابن رشد كان يعتبر آراء افلاطون تنطبقعلى الدولة الاسلامية المعاصرة له . وتطبيقه لآراء افلاطون على هذا العصر يعطى لشرحه صبغة خاصة تتميز عما سواه · وليست ملاحظاته بالشيء العابر كما نلاحظ ذلك عند ابنباجة فى المتوحد بل بالعكس تنم ملاحظاته عن نقد رصين موزون لفيلسوف مسلم تشبعبالفلسفة السياسية اليونانية . لم يكن فى استطاعة ابن رشد ان يحكم، فكان من واجبه ان يخدم الدولة بوسيلة اخرى · وليس من الصدفة ان يمارس وظيفتى قاض وطبيب وقد قال افلاطون ان ممارسة اكثـر من شغل لا يكـون الا فى الـدول الناقصـة ·

. وكان ابن رشد ينتقد الشعر لما يوحى به من مشاعر محرمة ، ويستنكر الشعر الجاهلى لاسباب دينية ، واخلاقية ، ويشير الى ما فى قصائده من خطر سياسى · وهذه الملاحظة الاخيرة استوحاها طبعا من افلاطو ن·

رأيه فى المرأة

لكن ابن رشد استنبط رأى افلاطون فى المرأة وطبقه بصورة عجيبة وجريئة على وضعية المرأة في الاسلام · انه يحبذ ما ذهب اليه افلاطون من مشاركة المرأة فى الواجبات المدنية · فيبدى واقعية سياسية عجيبة وشجاعة نادرة لانه يعارض تمام المعارضة ما كان يجرى به العمل فى المجتمع الاسلامى انه لم يكن يحبذ بالطبع اختلاط النساء بالرجال · وأسوق بعض استنتاجاته حول رأى افلاطون في مشاركة النساء لاعمال المدنية :

« اننا لا نعرف مقدرة النساء فى هذه الدول لانهن لم يستخدمن الا للنسل · فهن رهن اشارة بعولتهن ولا يصلحن الا للولادة وتربية الاطفال والرضاع · لكن هذا يقضى على انواع النشاط الاخرى ·· وان من اسباب عقم هذه الدول ان النساء عالة على ازواجهن · ونجد عدد النساء ضعفى عدد الرجال · وفى نفس الوقت لا نلقنهن الاعمال الضرورية باستثناء بعض الاعمال البسيطة كالنسج والغزل لسد العجز » ·

انه انتقاد موجه بالذات الى الدولة الموحدية فى عصره · وكما كان افلاطون ينتقد السفسطائيين فان ابن رشد كان ينتقد المتكلمين ويعتبرهم أكبر خطر على الدولة ·

كان ابن رشد يستعير تعبير « المدنية الامامية » لابن باجة ويطلقها على الدولة الناقصة . وكان يطلقها على الدولة الموحدية التى تطورت من النظام الديمقراطى الى النظام الاستبدادى على حد تعبير افلاطون وفى هذا قال ابن رشد :

« لقد كانت الاموال فى يد العامة ثم تكدست فى يد العائلات المالكة بمعنى ان الرعايا أصبحوا ملزمين بخدمة مصالح الملك الشخصية » ·

ويبدو لى ان فى هذا اشارة الى ما كان عليه تسيير شؤون الدولة فى عهد الخليفة الموحدى ابى يعقوب يوسف خليفة عبد المومن وابنه ·

وفى موضع آخر ينتقد ابن رشد ما أصبح عليه الحكم فى الاسلام حيث تطور من الخلافة الى الملك · ويقارن بين ما آلت اليه الاوضاع وآراء افلاطون · وينتقل الى المقارنة مع التطورات التى حصلت على عهد المرابطين والموحدين ففى عهد يوسف بن تاشفين كان نظام الحكم مبنيا على الشريعة اى مماثلا للخلافة ثم تطور الى ملك فى عهد ابنه ثم انساق الى الاهواء فى عهد حفيده ·

فنرى مما تقدم ان ابن رشد يقابل بين الخلافة والدولة عند افلاطون ونلاحظ انه يحذو حذوالفيلسوف اليونانى فيبين اثر انقلاب الاوضاع في طبيعة الفرد · ان الانتقال من الديمقراطية الى الاستبداد قد حصل فى عام 540هـ وهو تاريخ جد مهم فى العرض الذى قام به ابن رشد وتحول فى التاريخ وفى ذلك يقول ابن رشد : «يمكنكم ان تلاحظوا ذلك من الاخلاق والعادات التى ظهرت منذ 540 عند الحاكمين وأعيان الدولة · وحيث ان النظام الذى شبوا عليه قد ضعف فان اخلاقهم فسدت · ان من يستطيع الاحتفاظ بفضائله هو الذى يحافظ على تعاليم الدين · وهذا نادر عندنا » ·

اننا نرى فيما سبق ما قاله افلاطون عن انحلال الدولة المثالية ·

هذه الامثلة تكفى لبيان المركز الاساسى الذى يحتله الوحى فى فلسفة ابن رشد السياسية · وهى تبين ايضا كيف كان انتقاده الجرىء للدولة الاسلامية المعاصرة له يعكس الاساس الاسلامى لنظرياته التى استوحاها من افلاطون وارسطاطاليس · وان تطبيقه لآراء افلاطون ونظمه على دولتى المرابطين والموحدين ليدل على ذلك دلالة واضحة (I)

(I) استندت فى هذا المقال على نص عبرى قمت بنشره لشرح ابن رشد لجمهورية افلاطون . اما الاصل العربى فيعتبر مفقودا · والنص العبرى انجزه مترجم يهودى من مرسيليا سنة I322 ، كما ترجم الى العبرية تفسير ابن رشد لكتاب « الاخلاق » لفلاطون · وقد اخذت النصوص المدرجة فى المقال من الكتاب الذى نشرته بترجمة انجليزية سنة 1956 .

مكتبة البيّنة

الاتفاقات الدولية للسلطـان سيدى محمد بن عبد الله

كتاب جديد للاستاذ كاييى
نشـرته كليـة الحقـوق
تحليل : عبد العزيز بنعبد الله

أصدرت جامعة الرباط (كلية الحقوق) ضمن مجموعتها القانونيـة والسياسية والاقتصادية كتابا قيما حول اتفاقات سيدى محمد بن عبـد الله الدولية ٠

والكتاب يقع فى 287 ص من الحجم المتوسط ٠

ويمكن تقسيم الكتاب الى قسمين :

أ) دراسة عامة حول شخصية السلطان سيدى محمد بن عبـد الله منذ كان خليفة لوالده بمراكش ثم نظرة عن سياسته الخارجيـة (الجـهـاد وتحرير الاسرى وتطوير الاقتصـاد وتنمية المـوارد الـوطنية والاهتمـام بالمبادلات التجارية مع اوربا وتأسيس مدينة الصويرة لهذه الغاية وتصدير القـموح الـخ) ٠

2) علاقة السلطان مع قناصل الدول المسيحيـة وكيـف تمكـن مـن الجمع بين النشاط الهادف الى مواصلة تحرير المراكز التى يحتلها الاجانب مع تقوية التجارة الخارجية بين المغرب والدول الاجنبية ٠

3) دراسة للاتفاقات والمعاهدات من حيث الشكل والفحوى والنشر والتنفيـذ

4) دراسة تحليلية للبنود المتعلقة بالسلم والحرب والاسرى والسفراء والقناصلة والحصانات الدبلوماسية وعلاقة السفارات بالدولة (من حيث السكنى وحق رفع راية الدولة الاجنبية وحق ممارسة الديانة المسيحيـة والاعفاء من الحقوق الجمركية وحرية التجول بالمغرب والخروج منه وتحديد مسؤوليات المواطنين الاجانب والممثلين الدبلوماسيين وحق ممارسة السلطة القضائية (بالنسبة للاجانب) وشروط حرية الملاحة الاجنبية فـي الميـاه المغربية وعلاقة الاسطول المغربي بالاساطيل الاجنبية خارج حدود هذه المياه الاقليمية الوطنية وشروط استيطان الاجانب وحـرية التجـارة (الفوائـد الممنوحة لبعض الدول والحقوق الجمركية والصيد) وحماية الرعايا المغاربة

5) دراسة بعض الاتفاقات الخاصة والبنود الاستثنائية ذات الطابع السياسي (المهادنة والجزيات والتعويضات والوضع القانوني لبعض المراكز التي يحتلها الاسبان بالمغرب كمليلية وسبتة) او التجارى والملاحى (تصفية الشركة التجارية الدنماركية ووضع القراصنة الجزائريين وغير ذلك) .

6) درسية ختامية تلخص سياسة السلطان من خلال هذه الاتفاقـات الدولية وجانب التجديد فيها ومدى النفوذ الذى يتمتع بـه السلطـان فـى الخارج ثم استخلاص النظريات القانونية التى كانت أساسا لهذه الاتفاقات ومدى اسهام المغرب اذ ذاك فى دعم القانون الدولى العام والتنظير بين هذه المعطيات وبين التشريع الدولى فى القرن العشرين .

ب) نشر نصوص هذه الاتفاقات وهى اما مجرد اتفاقات واما معاهدات واما اقتراحات من طرف السلطان على الدول واما تصـريحات مـلكية فـى موضوع خاص واما مواثيق واما عقود الحاقية تنضم بموجبها دولة اجنبية الى معاهدة مبرمة بين المغرب والاجانب واما مرسوم ملكى يعطى لبعض الدول بعض الصلاحيات الخاصة واما امر سلطانى (كـالامر المتعلـق بالتجارة الخارجية فى ميناء طنجة) واما رسائل ملكيـة (كالرسالـة التـى تخـول لهولندا حق احتكار التجارة فى مرسى العرائش) ويستخلص القارىء مـن دراسة هذه النصوص الفروق المصطلح عليها فى القانون الدولى بين هذه المفردات تبعا للقيمة التى يعطيها اياها المتفاوضون .

والقسم الاول عبارة عن دراسة تحليلية لشخصية السلطان ولسياسة

المغرب من خلال المعاهدات التى تلقى اضواء على بعض العوامل التى حدت ملوكنا الى نهج هذا الاتجاه او ذاك فى علاقتهم مع الخارج سياسيا واقتصاديا وتقرأ من بين سطور بعض الاتفاقات الروابط الخاصة التى كانت تصل بين المغرب وبين دولة من الدول الاوربية تحت تأثيرات استثنائية او قارة وهنالك نظرات عن الدور الذى قامت به القرصنة المغربية فى هذه الآونة من تاريخنا الوطنى وعن بعض الاسباب التى دعت دولا اجنبية الى خطب ود المغرب والتعاقد معه او اداء جزية سنوية له (كما وقع مع الدنمارك والسويد وهامبورغ وبرييم بالمانيا الخ) .

ويشاهد القارىء صورا لبعض الادوار التى كان يقوم بها قناصلة او سفراء اجانب وبعض ردود الفعل المتجلية فى تصرفات السلطان أو سفرائنا المتنقلين فى الخارج .

ونلتمس في كل ذلك مدى شعور ملوك المغرب بالمسؤولية التى يتحملونها كرؤساء دولة وتحريرهم فى القرارات المتخذة او الاتفاقات التى يوقعونها باسم المغرب ثم مدى ادراكهم لبعض المقاييس القانونية التى كانوا يركزون عليها سياستهم الخارجية ضمن نطاق تشريعى دولى يحفظ سيادة البلاد ومصالحها ويضمن علائق مسالمة مع الاجانب داخلا وخارجا .

وقد اشاد المؤرخ والقانونى الفرنسى جاك كايبى مؤلف هذا الكتاب بالروح الدولية التى كانت تذكى السلطان سيدى محمد ابن عبد الله ملاحظا ان الانسان يستغرب احيانا ما كان يبديه السلطان من آراء يسبق بها ما عرف بعد ذلك فى اوربا فى العصر الحاضر .

ولم يستند المؤلف طبعا الا لمصادر اجنبية ولما وقع عليه العثور من وثائق ورسائل في المكتبات الاوربية والخزائن الرسمية فى وزارات الخارجية الاوربية وهى نسخ لنصوص الاتفاقات والمعاهدات تارة باللغة العربية وغالبا بلغة اجنبية ولا شك ان اصول بعض هذه المستندات ما زال مبعثرا عندنا اما فى مكاتب خاصة (بعد انتقالها من بين يدى بعض المسؤولين فى القرنين الماضيين عن طريق الارث او البيع الى ايد أخرى) واما محفوظة فى بعض القصور الملكية فى المغرب .

ولدينا عظيم لامل في همة جلالة الحسن الثانى من اجل تشكيل لجنة من العلماء البحاثين لاستخلاص هذه الذخائر من المكاتب الرسمية ودراستها ونشرها حتى يتأتى لنا تصحيح بعض النظريات الاجنبية فى تاريخنا القومى .

أصداء

عيـد العمل

يصادف صدور العدد الاول مـن البينة احتفال الشغالين فى العالـم بعيد فاتح ماي فتنتهز الفرصة لتهنئة عمال العالم بموسم الشغل الذى هو خاصة الانسان ، وننوه بما يقوم به عمالنا من مجهـود لبناء استقـلال المغرب بفضل الوفاء الذى بثته فيهم روح الاسـلام والتربيـة الوطنيـة السليمة .

والبينة التى تعمل على بعث الروح الوثابة التى تدفع حواريى الرسالة الخالدة للعمل والبذل ، لايمكنهـا الا ان تعبر عن استعدادها لخدمـة التضامن بين الشغالين من اجل الكفاح فى سبيل أنسنـة العمـل ، وجعله رباط ود وتعاون على سد حاجة الانسان كما تقتضيه الفطـرة الاولى التى فطر الله الناس عليها .

ان العدالة الاجتماعية لا تتحقق الا بديمقراطية تـقـوم على اسـاس الشغل واعتباره رأس المـال الاول والاخير ، وذلك يعنى محو كـل استغلال والقضاء على كل وسائـل التدليس والاحتكار . مع الاحتفـاظ للانسان بكرامته وتسخير الالة له ، لا جعلها اداة استعباد يخضع بهـا المرء للمسيطرين عليها او وسيلـة لابتكار المؤامرات التى تهلك الحرث والنسـل .

ان الانسان يمتاز عن الالة وغيرها من الكائنات بما اودع الله فيه من فكر وهذا الفكر هوالذى يجعله قويخطىء فيستمر مع ذلك فى سيره ولا يقف كما تقف الالة حينما ينقصها شىء او تتعثر فى لولب من لوالبهـا ، لان الفكر لايدورر دورة الالة التىلاتتحول

ولكنه يسبح فى آفاق شتى ويلتقط امواجا متعددة ، ومع قدرته على الفرز وعلى توزيع نظراته البصيرية فان طفيليات تفسد عليه رؤاه او تخلط عليه شتى مناحيه ، وهذا هو سر عظمته التى تخرج به من قطعة الحديد او من جملة الحيوان ليكون الانسان المفكر ومن ثم الرجل المخطىء الى الحر الذى يتحمل مسؤولية عمله .

وهذا الرجل الحر الذى يتحمل مسؤولية عمله هو كذلك لان العمل خاصته ، والعمل لايكون من الانسان كما يكون من الالة ، ولكن لابد ان يسبقه فكر ويصحبه وعى .

فالشغل اذن ليس مجرد مطرقة ومنشار او قدوم ومنجل ، ولكنه الى جانب ذلك فكر وروح وخلق وقلم وكتاب .

وديمقراطية الشغل التى تدعو البينة لها هى هاته التى تجعل من المواطنين عمالا قادرين على تسخير الالة ، وفى الوقت نفسه مفكرين وكتابا يتمتعون بالمعرفة ويعملون فى الحقلين معا فى اطار من الدين ومن الخلق العالى

وفاتح ماى بالنسبة لعمالنا يوم تجديد الوعى بانسانية الانسان ، وبخلافته عن ربه فى عمارة الارض، والتعاون مع اخوانه طبقا لفطرته الاجتماعية ، وجريا على ما سنه رسل الله ودعاة الخير .

استرجاع الجزائــر

تستعد الجزائر لتعلن استقلالها عن طريق الاستفتاء الرسمى بعد ان أعلنته عن طريق الحرب الضروس التى خاضها الشعب الباسل ضد الاستعمار والرجعية الاستعمارية .

ولن تنتهى هذه السنة حتى تكون الجزائر قد اخذت مقعدها بين الدول الحرة المستقلة ، واخذت مكانتها فى الكفاح الحر لبناء الاستقلال والقضاء على مخلفات الحرب ورواسب الاستعمار .

وبانتهاء هذه السنة سيكون العالم العربى والافريقى قد استعاد دولة من اهم دوله واقواها مركزا واغزرها انتاجا وانماها ثروة ، وسيكون باب الاستعمار الذى نفد منه الى قلب القارة وشمالها قد اصبح بابا للحرية والكرامة والتعاون الحر فى سبيل حياة أفضل لابناء افريقيا . وبانتهاء هذه السنة ستطوى صفحة من اخطر تاريخ مر بالقارة وبالعالم العربى والاسلامى ، وقد مرت فيه الان الانسانية بأخطر تجربة فى حياتها : تجربة الاستعمار

وكانت الجزائر من اهم ميادين هذه التجربة . فقد حارل الاستعمار

فيها ان يتخطى البحر ليجعل من الجزائر امتدادا لفرنسا ، ورأس المعبر للقارة كلها . وكانت النظرية الاستعمارية هي ان تكون الجزائر مركز الاستقرار للطاقة الاروبية الزائدة ، ومركز الاثراء السهل للمغامرين مغامرة سهلة ثم مركز تمديد الامبراطورية جنوبا وشرقا وغربا .

وقد نجح الاستعمار نجاحا هائلا منذ احتل الجزائر في سنة 1830 والعالم العربي والاسلامي والافريقي يومئذ في غفلة عما تصنع اروبا ، واروبا يومئذ في عنفوان نهضتها العسكرية والصناعية

وكان مما يضاعف الخطر ان الشعوب التي تقع فريسة الاحتلال تكافح ــ ان هي كافحت ــ وحدها حتى تسقط صريعة التفوق المادي والعسكري .وكافحت الجزائر بقيادة الامير عبد القادر كفاح الابطال ، ولكنها استسلمت نتيجة تفوق فرنسا وضعف الجزائر وقلة الوعي التضامني في العالم الافريقي .

كانت فرنسا ــ وهي تستقر في الجزائر ــ مدفوعة بشتى العوامل : الانتصار العسكري ، الاحلام الامبراطورية ، المجال الحيوية الاقتصادية والعمرانية لابناء فرنسا الثروة الفلاحية والمدنية ، التطور الصناعي في ظروف سهلة ، وكانت الى جانب ذلك عوامل الانتصار الديني اذ كان احتلال أقطار من العالم الاسلامي امتدادا للحرب الصليبية التي لم يخمد لها أوار منذ معارك فلسطين في الشرق ومعارك استرجاع الاندلس في الغرب حتى رأينا احد وزراء فرنسا يصرح في النصف الثاني من القرن : ان الصليب انتصر مرة اخرى على الهلال .

واذا كان قرن وثلث قرن قد مكن لفرنسا في الجزائر ، فانها استطاعت ان تحقق الكثير من الاهداف التي دفعت بها الى احتلال الجزائر : مكنت ابناءها من ارض للاستقرار والاثراء والعمل ، فتحت عن طريق الجزائر تونس والمغرب وتوغلت في افريقيا ، بنت امبراطورية شاسعة بأبناء الجزائر وثروة الجزائر ، اتخذت منها ملجأ حينما كانت تنحسر عنها الحرية وخاصة أثناء الحربين العالميتين ، استغلت ابناءها في الحروب الاستعمارية ولكن شيئا واحدا لم تستطع ان تحققه هو القضاء على الروح الاسلامية والوطنية والتطلع الى العربية فقد ظل قلب الجزائر ينبض بهذه الروح رغم كل الجهود التي بذلها الاستعمار ، حتى كانت الوثبة في أول نوفمبر من سنة 1954 .

كانت هذه الوثبة اذن وثبة استرجاع للجزائر التي حسب

الاستعمار انها اصبحت خالصة لـه من دون أهلهـا ، وكـانت عمليـة الاسترجاع صعبة تنفق والجهود التي بذلتها فرنسا لاحتـلال الجزائـر . ولكن الصبر والشجاعة والتضحيـة التي بذلها الشعب الجزائرى كانت تتفق ايضا والروح الذى ظل ينبض به قلب الجزائر .

واليوم ستعود الجزائر الى اهلها لا في القطر الجزائرى فـحسب ، ولكن في العالم الاسلامي والعربـي والافريقـي ، وبعودتهـا سينحسـر الاستعمار عن القارة وسيقفل الباب في وجه الاستعمار ليفتح من جديد في وجه الحرية والكرامة والعمـل المشترك لصالح العـرب والمسلميـن والافريقييـن .

ذكريـــات ابن خلدون

يمكن ان نعتبر هذه السنة سنـة ذكريات ابن خلدون فقد اقيمت في القاهرة مهرجانات علمية في الاسبوع الاول من يناير الماضي وتقـام فـي شهر مايو الحالي مهرجانـات علمية بكلية الاداب بالرباط تخليدا لذكرى العالم المؤرخ الفيلسوف الذى انجبـه المغرب العربى فقدم للانسانية اثمن هدية فكرية عرفها تاريـخ العصور الوسطى .

ويمكن ان نقول: ان العالم العربى الاسلامى اشترك جميعه في تكـوين ابن خلدون ، واشترك جميعـه فـي منحه المادة الاسلامية لابتـداع علـم جديد هو « علم العمران البـشرى » الذى يمتزج فيه علم السياسة بعلمى التاريخ والاجتماع ، فقد ولـد فـي تونس وقضى شطرا من شبابه الناضج في المغرب ، وانتقل الى الاندلس ثم الجزائر ومنها الى مصر فجزيرة العرب واستقر به المطاف في مصر حيـث قضي شيخوخته حتـى توفـى سنـة 808 هـ .

ولم تكن حياة ابن خلدون حياة العلم الهادىء ، وانما كانـت حيـاة علم عامل مصارع فكان عمله السياسى جزء مـن عملـه فـي الـوزارات والسفارات والـوظائف القضائيـة ، وكان يدرس التاريخ وهو يعيش مع حفدة الذين بنوا هذا التاريخ فـي الجبال والقـرى المنعـزلة بالمغـرب والجزائر وتونس . وكان صراع ابن خلدون السياسى عدته في كفاحـه العلمي ، وقد ترك كل ذلك اثـره في كتبه سواء منها « العبـر » او «المقدمة» او كتاب التعريف بحياته .

وما تزال المقدمة على تطور العلم وتقدم الدراسات الفلسفية التاريخية

والاجتماعية ، ما تزال تشده العالم الثقافي حتى قال عنهـا فليسـوف المؤرخين فى القرن الحالى توينبـى : « ان ابن خلدون انتج اعظم كتـاب الفه عقل انسانى فى اى زمـان او مكان » وما يزال كتاب العبر المرجع الوحيد فى تاريخ البربر ، وما يزال كتاب « التعريف » يشوق الباحثين والقارئين كاحسن كتاب فى الترجمة الذاتية كتبه كاتب او عالم

هذه الشخصية الفذة فى تاريـخ التفكير الانسانى حرية بان تقام لها الذكريات ، ولكن هذه الـذكـريات يجب ان تكون من نوع آخر جدير بصاحبها ، وما نراه جديرا بغير نشر كتبه ومؤلفاته نشرا علميا وتـرجمة ما يستحق الترجمة منها حتى يتمكن القراء العرب وغير العرب من الاطلاع السليم على هذه المؤلفات .

ان جهودا فردية تبذل هنا وهناك لنشر بعض كتبه او اجزاء من العبر، ولكن ذلك لا يقوى على اخراج هذه الكتب جميعها اخراجا علميا سليما.

ومناسبة هذه الذكريات جديرة ان تبعث المؤسسات العلمية فى المغرب والمشرق لتتفـق على اخـراج هذه الكتب اخراجا علميا وتقريبهـا من عموم القراء ، فالوفاء لابن خلدون وعلمه لن يكون بمهرجانات خطابية فحسب ، ولكنه يجب ان يكون بخدمة مؤلفاته وتقريبها من الباحثيـن والدارسين .

درس من ذكرى الجـلاء عن تطوان

تحتفل مدينـة تطـوان بالذكـرى المائوية لجلاء الجيش الاسبانى المحتل عن تطوان ، وهى ذكرى وطنية يجب ان ياخذ المغرب منها درسا فى المحافظة على وحدة الوطن والكفاح فى سبيل استرجاع الاجزاء المغتصبة .

فقد كان احتلال تطوان منذ قرن مضى نتيجة للجيوب الاستعمـاريـة التى ظلت فى بلادنا منذ بدأ الغرب يهاجم سواحـل المغـرب وكانـت سبتة ـ وما تزال ـ اخطر هـذه الجيوب .

كانت معركة تطوان واحتلال الاسبانيين لها نتيجة لتهاون المغرب فى استرجاع سبتة واذا كان المولى اسماعيل قد عمل على توحيد المغرب فاسترجع كثيرا من المناطق المغتصبة كطنجة والعرائش واصيلا ، فان عدم نجاحه فى استرجاع سبتـة سبـب الكارثة التى حلت بالمغـرب حينمـا هاجمت الجيوش الاسبانية تطـوان واحتلتها وعاشت فيها واذلت سكانها وانتهكت حرمة مقدساتها وحولت بعض المساجد فيها الى كنائس .

كانت نكبة عنيفة تجرع المغـرب مرائرها طيلة 27 شهرا من الاحتلال، ثم في السنوات التي تلت الجـلاء حينما اخذ يستدين لفداء تطوان ولاداء التعويضات الباهظة التي نصت عليها معاهدة الصلح الجائرة ، وكان هذا الاستيدان سببا في تدخل الاجانب بعد ذلك في الشؤون الخاصة

ويبقى ان نذكر ان حكومة المغرب اذنت لاسبانيـا ان تستخلـص التعويضات بنفسها من مراكزالديوانة في الموانيء والحدود المغربية لنعرف اى هزيمة نكراء حاقت بالمغرب لافي الميدان العسكرى فحسب ولكـن في مظاهر السيادة التي يعبر التدخل فيها جراة على سيادة المغرب واستقلاله .

كان سبب الكارثة خلاف وقع بين هيئات حراسة « الحدود » بيـن منطقة سبتة المغتصبة والمغرب ، فقد بدأت جيوش « ايزابيـلا الثـانية » تتوسع في الحدود وتبنى منازل في مراكز لم يكن متفقا عليها فياتفاقية الصلح فهاجم رجال الحدود المغاربة هذه المنازل ، وقد يكونون اعتـدوا على كنيسة اسبانية او ما يشبه الكنيسة . واحيلت المشكلة على ممثلي الحكومتين في طنجة، ولكن لم يصلوا الى حل سلمى .

وكان على اسبانيـا ان تنتهـزها فرصة لتحقيق املها في احتلال اجزاء من المغرب وخاصة الشواطيء المغربية التي تعتبرها دائما حصنها فيالدفاع عن شبه جزيرة ايبيريا .

وخرجتجيوش اسبانيا واساطيلها من سبتة نحو تطوان عروس الشمال، واقرب مركز مهم الى سبتة .

واذا كانت حكومة السلطان محمد بن عبد الرحمن لم تدخر وسعا في صد جيش الغـزاة ، فان استعـداد المغرب لمجابهة جيش قوى منظم لم يكن بالقوة التي تتطلبهـا ظـروف المغرب ووضعيته بين دول تستعدكل منها لاحتلاله ، اذ كانت فرنسا واسبانيا وانجلترا والمانـيا جميـعا تطمع في احتلاله كجزء مـــن الامبراطورية التي ترغب فيتكوينها.

وكان الهجوم على تطوان ، ولعب الضعف العسكـرى والاجتماعـــي والجيش ولعبت الخيانة لعبتها ، وسقطت تطوان رغم دمـوع الاميـر العباس الذى كلفه السلطان بقيادة المعركة ، ولم يكن الهول الذى اصاب السكان الا سببا من اسباب الهزيمة والا مشجعا قويا لجيش الاحتلال على العبث بالبلاد وانتهـاك حرمـة مقدساتها .

كانت هزيمة، وكـان صلـح ،، والصلح بعد الهزيمة لن يكون فـي غير صالح المنتصر واتفق على الجلاء عن تطوان نظـير 20 ملـيون

ريال واضافة اراضي جديدة الى منطقة سبتة ومنطقة مليلية وتحويل سبتة مركزا للصيد على المحيط ، ثم امتيازات تجارية ودينية .

كان الصلح هزيمة اخرى ، واذا كان المسؤولون قد قارنوا بين الهزيمتين : احتلال تطوان ، وشروط الصلح الجائرة فاختاروا الثانية ، فان المغرب ما يزال يؤدى حتى الان ثمن هذه الشروط فى احتلال الساقية الحمراء وايفنى ووادى الذهب وفى احتلال المناطق التى اضيفت الى سبتة ومليلية ، ثم فى تركيز النفوذ الاسبانى فى المدينتين الاسيرتين ، ثم فى ذيول الديون التى كانت سببا فى تدخل الاجانب فى السيادة المغربية .

ان الدرس الاول الذى ناخذه من ذكرى الجلاء عن تطوان هو تطهير المغرب من الجيوب الاستعمارية : سبتة ومليلية والصحراء ، فلن تسلم سيادة المغرب ما دام الجيش الاسبانى والفرنسى يشاركاننا ارضنا ، ويحتلان اجزاء من وطننا .

وتلك هى رسالة هذا الجيل .

البينة

تصدر عند مطلع كل شهر

مديرها . علال الفاسى

رئيس التحرير : عبد الكريم غلاب

العنوان : 11 شارع علال بن عبد الله ـ الرباط
ص.ب 448

الاشتراكات : 12 درهما او ما يعادلها سنويا

ثمن العدد : درهم واحد

الفهرس

رسالة جلالة الملك للبينة

هذه البينـة : للاستاذ علال الفاسي 3

الطـريـقـان (قصيدة) : للاستاذ علال الفاسي 7

مسالك الاسـلام الى القـارة الافـريقية : للدكتـور حسـن ابراهيم حسن 10

دور المغرب في الوحدة العربية والوحدة الافريقية : للاستـاذ عبد الكريم غـلاب 22

أصول الاعلام الجغرافية المغربية : للاستاذ محمد الفاسي 37

حيـاة ابن الخطيب المغربيـة : للدكتور أحمد مختار العبادي 54

الفـن المغربي قبل التاريـخ : للاستاذ عبد العزيز بنعبد الله 66

أصـول الحكم في الاسـلام : للاستاذ عـلال الفاسي 74

آراء ابن رشد السياسية : للاستاذ روزنطال 94

مكتبة البينة (الاتفاقات الدولية للسلطان سيدي محمد بن عبد الله) للاستاذ عبد العزيز بن عبد الله 104

اصـداء: 107
- عيـد العمـال
- استرجاع الجـزائر
- لاكريات ابن خلدون
- درس من ذكرى الجلاء عن تطوان

اقرأ في العدد القادم

ابحاثا عن :

صحراء المغرب : عبد الكبير الفاسي

اثر ابن حزم في الفكر المسيحي : محمد ابراهيم الكتاني

الرحلات بين المشرق والاندلس : الدكتور محمود علي مكي

مسؤولية ما في مقالات هذا العدد ترجع لاصحابها

بسم الله الرحمن الرحيم

لم يكن الذين كفروا من اهل
الكتاب والمشركين منفكين حتى
تأتيهم البينة رسول من الله
يتلو صحفا مطهرة فيها كتب قيمة

«قرآن كريم»